وحباً وكرامة

صالح حامد

رواية

صالح حامد

حباً وكرامة

رواية

خان للنشر والتوزيع

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذنٍ خطّي من الناشر.

©الكتب خان للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

13 شارع 254 - دجلة - المعادي - القاهرة.

هاتف:20225196569+ - 20225170678+

e-mail: info@kotobkhan.com

www.kotobkhan.com

تابعونا على

kotobkhan@

Al Kotob Khan

إهداء إلى

الخوند كرم

وابن اياس المصري

دَقَّ جرس المنبّه العتيق في حجرتي المظلمة، فقمت على الفور. وبعد الانتهاء من طقوس كل صباح هبطتُ إلى الشارع في انتظار أتوبيس العمل. وقفت على الرصيف، أحمل حقيبتي الجلدية السوداء ، متطلعاً في وجوه الناس. بين لحظة وأخرى أنظر في الساعة، أضع يدي في الحقيبة لأطمئن على وجود أصدقائي؛ كتاب، علبة سجائر، ولاعة، قطعة قماش سوداء لتلميع الحذاء، أدوات الحفر. يطول الانتظار، فأخرج نقوداً وأهم بشراء جريدة، ولكن الأتوبيس يأتي فجأةً، فأصعد دون أن ألقي تحية الصباح على الجالسين. مقعدي في نهاية العربة.

أصل إلى العمل، أدخل المبنى فأمشي في طرقات المؤسسة المستقيمة. مكتبي أيضاً الأخير في الصف، ولكنه الأنظف. أحياناً، لا يتذكر مديري في العمل اسمي، على الرغم من أني أنفذ كل ما يُطلب مني. لا أغيب. لا أتذمر. عملي الرسمي هو موظف في الأرشيف: أبحث في الأوراق القديمة عن أسماء الذين ماتوا والذين غابوا.. كانت في البداية مجرد وظيفة أقوم بها ولكنها أصبحت أسلوب حياتي.. أبدأ في ممارسة روتيني اليومي بفتح الأدراج وإخراج الملفات، أدون أسماء وتواريخ وعناوين وأرقام تليفونات. أما عملي الأصلي والأساسي فهو "حفار"، لا أحب اللقب الحديث لتلك المهنة "مصمم جرافيك" لأن الجميع حين يسمعون تلك الكلمة يتبادر إلى ذهنهم شيء آخر، وتكون النتيجة آآآه "كمبيوتر جرافيك". غالباً ما أغادر المكتب، وأبقى معظم الوقت في ورشة بالمبني الثاني الكبير. تكاليف هذه البناية إهداء من شعب ألمانيا الشقيق، الأرضية تغطيها بلاطات رخامية كبيرة تميل إلى اللون الأصفر معظمها غير ثابت من كثرة المياه اليومية للتنظيف. يعرف البلاطات التي ماتزال ثابتة، يضع الحذاء اللامع عليها في ثبات كأنه يمشي على لغم أرضي أو قشرة بيض. يمر أمام قسم المشغولات الجلدية، يلوح بيده إلى ميرفت، لكنها لا تراه. يقترب من الباب الأبيض ويخرج قطعة القماش الخاصة بالحذاء لينظف لوحة زرقاء مكتوب عليها "قسم الجرافيك". يضع يده في جيبه ليخرج سلسلةً بها عدد قليل من المفاتيح. مفتاح الورشة مميز، لونه أحمر؛ يفتح الباب ويلقي تحية الصباح على آلات الطباعة ـ السلندر ـ أعمارها مختلفة، وكذلك جنسياتها، منها الإيطالي والفرنسي والإنجليزي والبلدي. أكبرها للطباعة على الحجر، تقبع بمثابة القائد في نهاية الورشة بالقرب من أحواض المياه الخاصة بأوراق الطباعة، وخلفها الحائط المغطى بالسيراميك الأبيض الذي يعلوه التراب. أشعل مفاتيح الكهرباء، فتُضاء الأنوار، وتدور المراوح التي تبدو صغيرةً لارتفاع السقف. أضع الحقيبة على المكتب المعدني ماركة "إيديال"، تزينه

كلمات للذكرى بكل زواياه مخطوطة بالألوان أو محفورة في طلائه الرمادي الكالح: محسن ومنى حب إلى الأبد.. عشماوي شهيد الفن.. وقلوب كثيرة.

مكتبي قريب من الحائط الذي أغطيه بصور كثيرة لأعمال فنية محفورة وإعلانات سجائر مارلبورو وبعض الأعمال لفنانين أجانب لا أعرف عنهم شيئاً غير أنهم أجانب. . أخرج ورقةً بيضاء من أحد الأدراج السبعة. أمتلك مهارة اليد، أجيد الرسم منذ الصغر، وأحتفظ بصورة كنت أعتقد أنها مرسومة بالرصاص، ولكن عندما التحقت بكلية الفنون الجميلة، قسم الجرافيك، ومارست فن الحفر، عرفتُ أنها محفورة على الزنك ثم مطبوعة، وذلك من رقم النسخة وإمضاء الفنان. أحببت هذا القسم من الكلية رغم سخرية طلبة بقية الأقسام منه. يسخرون مننا فيقولون:»بتوع الجاز، الميكانيكية»، و بسبب حبي للأستاذ الجبالي معلم هذا الفن: الفنان بكل ما تحتويه هذه الكلمة البسيطة من معاني.

وأحتفظ حتى الآن بأول مشروع قمت بحفره. أحتفظ بقطعة الزنك التي لا يتعدى حجمها كف يدي، داخل قطعة قطيفة حمراء اللون، مربوطة بحبل أسود، وعليها ختم من الشمع، قمت أيضاً بحفره ، يحمل اسمي ولقبي. كان هذا الفن ولا يزال يشعرني أني في القرون الوسطى، حيث نشأة فن الحفر للرسم على الدروع، والسيوف، والخوذات، أكثر فن مرتبط بالمهارات الشخصية، خامات خشنة، وأدوات صلبة، وجو مشبع بالأحماض، والبخار المتصاعد، وألواح الزنك، والنحاس، والخشب، والأحجار، ومقصات حديدية شديدة الضغط. كل هذا يشعرني أني في طليطلة قبل صلاة الفجر، أقوم بطرق وحفر أقوى السيوف التي صنعت للمحاربين، جو أسطوري أشعر به حين أدخل المطبعة.

في الكلية كان الدور الأرضي أقرب إلى قبو متوسط المساحة. الآلات قديمة، من عمر إنشاء قسم الجرافيك، آخر فن التحق بكلية الفنون. كنت أمهر من يقوم بقص، وتهذيب، وحفر ألواح الزنك الصلبة في الدفعة والكلية. الدكاترة والأساتذة والطلبة وخاصةً البنات، يعرفونني جيداً وبالاسم. أستطيع تقطيع وقص أي مساحة مهما كانت صغيرة أو كبيرة، والأصعب أن تكون دائرية؛ التحدي الحقيقي بالنسبة لي، كما لو كانت درعاً أو ترساً أقوم بصناعته لمملوك من المماليك، أشهر من امتطى الجواد وأمهر من لعب بالسيف، وأكثرهم حفراً على الدروع. أحفر على ألواح الزنك بالقلم الحديدي، أداة تشبه القلم فعلاً، ولكنها من الحديد الصلب، أذهب إلى الخراط، يقوم بخرطه على الآلة الجبارة التي تأكل الحديد لتخرج لي هذا

«السمبك» في النهاية. آلات فن الحفر كالمكشط والمصقل؛ كلها آلات صلبة. فنّ صَلب، وأحماض تأكل في الصُلب والزنك، تستطيع أن تأكل أيضاً إنسان كامل في بضع ساعات. نوع من الفن خرج من آلة السلاح، خرج من الموت.

كان مشروعي الأول بالكلية تصميمَ حر «كل واحد يحفر اللي في دماغه». فكرت في المملوك. كان السيدون ثقيلا جداً، قمت بتخفيفه بالبنزين؛ السيدون هو العازل الذي يقهر الأحماض التي تأكل في الزنك والنحاس. غطيت الزنك تماماً بالسيدون، بدأت بالحفر: أزيل بالسمبك خطوطا صغيرة جداً؛ لكي يترك فرصة للحمض القاتل أن يحفر في الزنك عندما أغطسها في الحوض الممتلئ بالسائل القاتل. أحفر خطوطاً كثيرة متوازية ومتعاكسة أحياناً، بعضها سميك وبعضها دقيق جداً. أستمتع بكل خط أقوم بحفره. تظهر ملامح المملوك ضعيفة هزيلة بين الأسود والأبيض ـ السيدون والزنك ـ أقوم بوضع لوح الزنك في الحمض، ثلاث دقائق كافية جداً، أقوم بغسله بالماء، لا أري أي شيء من الخطوط الكثيرة التي حفرتها، أحضر الورق وأقوم بإغراقه في الحوض المخصص للورق المملوء بالماء، ثم أضع عليه الحبر العتيق ماركة «كينو» صناعة مصرية، مصنع من أيام محمد علي، بعض العلب مكتوب عليها «فبريكة مصر»، حبر شديد السواد واللزوجة والتماسك، بعض البنزين أو الزيت الخاص بالرسم كفيل بحل هذه المشكلة، وكارت تليفون منتهي أو كارنيه قديم لسحب الحبر على الزنك.

يدي تمتلئ باللون الأسود، أتحمس أكثر، وأزيل الحبر الزائد بقطعة شاش، أخيراً تظهر الملامح والخطوط ثم أنتشل الورقة من الماء وأنشفها قليلاً. المكبس الجبار ينتظرني أضع الزنكة على الدليل الذي يقوم بتوزيع الفراغ حول لوح الزنك بالتساوي. أنتبه لشيء مهم، المساحة الأسفل لا بد أن تكون أكبر من الأعلى لكي أكتب عليها توقيعي والسنة ورقم النسخة.

أين هذا الفن الآن؟ ساد الكمبيوتر جرافيك، لا أحد يريد أن يضع يده في الحمض القاتل، والحبر الأسود، والمقص الجبار. بل لا أحد يعرف.

ورشة الجرافيك أحب مكان إليّ في هذه المؤسسة، وهي سبب قبولي لهذه الوظيفة الحكومية. أترك دائماً مكتبي الأساسي وأنزل إلى الورشة. كانت مهجورةً قبل أن أتوظف هنا، لا أحد يعمل بها، الكل يخاف منها. ماكيناتها وحوش قابعة بالأسفل تأكل كلّ من يحاول الاقتراب منها، الكل يخشاها إلا الحفار. أقوم بتنظيفها بنفسي، بعضها نال منه العجز والصدأ من عدم الاستعمال والإهمال، أحضر زيت الآلات لأزيل الخشونة المبكرة

منها.
أحضر أدواتي وخاماتي الخاصة معي، أحفر بها ما يحلو لي، وأقوم ببيع بعض الأعمال من حين لآخر، لكن معظم الوقت أجلس بها للاختلاء بنفسي... استلمت الورشة بكل ما تحتويها عهدةً شخصية: سبعة مكابس ضخمة، منها اثنان لا يعملان، ألواح زنك محفور عليها، غُلب حبر، أوراق طباعة، ورق جرائد، أدوات للحفر على الزنك والخشب، أحواض الحمض والماء، ومراوح السقف أيضاً، والسخان الذي يساعد في تجفيف النسخ بسرعة، ومكتبي الثاني المحبب إلي. الشفاط الذي يعمل بقوة الريح. ومكبس ضخم عتيق صناعة إنجليزية للطباعة على الحجر، به ترس ضخم، أتخيل نفسي بحار على سفينة، وأمسك به، وأبدأ في الإبحار في بحوري المالحة.
أرفع السماعة وأطلب كوب شاي من العاملة:
ـ في الورشة بسرعة يا مديحة.
يحضر أبو علي ليخبرني أن المدير يريدني في مكتبه فوراً. فلا أرد عليه أو أسأله عن السبب، فقط أنظر إلى الحذاء هذه المرة دون استياء. طلب المدير مني أن أقوم بالإشراف على السعاة وهم ينظفون حجرة الأرشيف القديمة في الغد؛ لأني ـ حسب زعمه ـ أمهر من يقوم بهذا العمل. لا أرد، وأذهب إلى مكتبي الأساسي مع بقية الزملاء، تحيط بي النظرات في ضحك خبيث. لقد طلب منهم المدير نفس الطلب فرفض الجميع، فهي حجرة مقفلة من زمن، وتحتاج إلى أسراب من السعاة لتنظيفها. لكني لم أرد بالرفض أو الموافقة. ثم عدت إلى ورشة الجرافيك، وفتحت أحد الأدراج لأخرج ورقةً بيضاء؛ لأقوم بكتابة بعض بنود الإنفاق، وقد قارب الشهر على الانتهاء، وغداً قد يكون موعد فتح المحفظة ووضع المرتب الهزيل.. وكانت البنود هي: إيجار المسكن القديم.. شراء قميص لو أمكن، وكتاب في التاريخ هذه المرة، وبالطبع غُلبة ورنيش أسود للحذاء.
مع انتهاء ساعات العمل بدأت في جمع أشيائي من على المكتب، وانتظرت حتى خرج جميع الموظفين، فكنت الأخير أيضاً في ركوب الأتوبيس. أنظر من النافذة على النيل وعندما مرَّ الأتوبيس على كوبري «قصر النيل» قررت النزول في وسط البلد؛ للبحث عن كتاب التاريخ؛ وللتسكع في الشوارع قليلاً. وكانت فرصة حيث القاهرة في بداية الأسبوع وأستطيع أن أستمتع ببعض الهدوء في البحث عما أريد.
أحب التجول في شوارع وسط البلد، وخاصة الشوارع الجانبية. قررت أن أذهب إلى إحدى المكتبات، ولكني شعرت بالجوع عندما مررت بعربة تبيع

ساندويتشات الكبدة، كنت قد اعتدت الأكل منها أنا وأصدقائي من أيام الكلية. نظرت قليلاً على العربة ومن حولها، الزبائن يأكلون بنهم يدل على عدم تذوقهم للطعام، لكن الجو العام ونظرات الآكلين إلى بعض في الطعام والأطباق، هو سر متعة الموقف، بعد الانتهاء ودفع الحساب والبقشيش، شربت مياهاً غازية، واشتريت لباناً وعلبة سجائر، وملأت الولاعة، ثم أخرجت سيجارة وبدأت في التدخين.

حقيبتي السوداء هي أقرب شيء إلي، بها كل أدوات الحفر، وأقلام الرصاص، ونسخ من أعمالي المطبوعة من الزنك أو الخشب أو الحجر. تأتي معي أينما أذهب برغم ثقلها. مصنوعة من جلد التمساح، وكنت أعتقد أنها من جلد الثعبان، بها جيوب قليلة كبيرة. أفرح عندما يخف وزنها من نسخ لوحاتي المطبوعة، وتمتلئ محفظتي بالنقود. تجولنا سوياً في وسط البلد، وجلسنا على أحد المقاهي التي يجلس عليها الفنانون، ومدعو الفن، وبعض الأجانب، ومن يتخذون الفن طريقاً للنساء، (لم أجرب هذه الطريقة حتى الآن) .طلبت فنجان قهوة وأخرجت قلمي الرصاص، وبدأت في رسم خطوط لا معنى لها، وأمامي تجلس حقيبتي السوداء. لم أطلب لها شيئا، أشعر بغضب نحوها ماتزال تحتفظ بعدد كبير من أعمالي، لم أبع منها إلا القليل. تخبرني الحقيبة: ليس لي ذنب، أعمالك لا تُعجب أصحاب المحلات الفنية. شغلك قاتم، طريقة قديمة في الفن. لا يقبل عليها أحد، بل لا يعرفها أحد، ومساحات صغيرة. طلبت منها السكوت والاستعداد للرحيل؛ لكي نقوم بجولة على «محلات الفن» كما تسميها..

تذكرت كلام المدير ونظرات الموظفين. وتذكرت أيضاً مديحة عاملة البوفيه ذات المؤخرة الكبيرة، ونظرات عينيها الممتلئة بالشهوة والإغراء، وصدرها العظيم؛ فهذه ثالث مرة تقوم بعملية الرضاعة منذ زواجها من زوج أختها المتوفية. تزوجته لتربية أبناء أختها، هذه هي القصة التي قالتها للعاملين جميعاً.

كنت أذهب إلى البوفيه لطلب كوب من الشاي أو القهوة. وعندما شعرت بنظرات عينيها، أخذت أترك لها بقشيشاً من خمسين قرش إلى جنيه عندما أطلب مشروب، سواء في البوفيه أو المكتب أو الورشة. طلبت منها صورةً كي أرسمها بسبب جمال عينيها العسليتين، وفلجة أسنانها البيضاء، وجسمها الجميل، بالرغم من عدم انسجام الصدر مع المؤخرة والخصر، كان يشعر بلذة غريبة وهو يحاول إقامة علاقة معها.. «ممكن أولع..؟» أخرجه هذا السؤال من تخيل مديحة.

ـ آسف.. الولاعة فاضية.

ذهب السائل وسط أسراب من النساء والرجال والأطفال..
في صباح اليوم التالي قررت أن أذهب إلى المدير للتحدث بشأن حجرة الأرشيف القديمة، أخبرته أن هذا العمل شاق، وطلبت منه أن يمدني ببعض العاملين لإنجاز هذا العمل. طلب المدير أن أرشح له بعض العاملين، فاخترت مديحة على الفور، بالإضافة إلى أم علي وعلي وأبو علي، وجدتها فرصة ذهبية لإتمام المراد. كما طلبت حافزاً مالياً للعاملين الذين رشحتهم مع التلميح إلى البقاء بعد ساعات العمل.
كانت عبير زميلة العمل والمساعدة لي في ورشة الجرافيك هي الوحيدة التي كانت تتحدث معي ببعض الحرية أمام الزملاء، وفي ما بيننا كان أسلوب آخر، أندهش لحكاياتها عن زوجها الأول الذي كان يجبرها على مشاهدة الأفلام الإباحية، وعن زوجها الثاني الذي يغيب كثيراً بسبب لقمة العيش.. حاولت أن أقيم معها علاقة جنسية فتظاهرت بالشرف، واكتفت بالجنس الكلامي، والتلامس، والمسك من الصدر، والأرداف. أخبرتني بكل أخبار النساء العاملات، وتفاصيل حياتهم الشخصية والجنسية.. وطبعاً أخبرتني عن كلام باقي الموظفين عني، وعن دمي الثقيل، وعن سر حذائي اللامع دائماً، وعدم معرفتهم بتفاصيل من حياتي لدرجة جهلهم إن كنت مسيحياً أو مسلماً.. والاندهاش الأكبر من الصداقة بيني وبين محمد حداية، والذي على الرغم من قوة اسمه إلا أنه لا ينتمي إلى فصيلة الصقور أو الجوارح بأي صفات تذكر. عندما تملكت منهم الحيرة قالوا: إني غلبان، طيب، مؤدب، في حاله، «مالوش». هكذا أخبرتني عبير عن التصنيف النهائي الذي اعتمده لي زملائي في العمل. وأخبرتني كم تمنت أن تخبرهم عن محاولاتي معها، وعن رغبتي في مديحة التي قالت لي: إنها سهلة المنال «لو عايزها فعلاً».
أخبرتها عن موضوع حجرة الأرشيف والعاملين الذين طلبتهم.. أخبرتني أن أطلب مكتباً جديداً وضمها هي وهبة ذات الحجاب كثير الغرز، والترتر، والأسنان التي تعاني من التسوس، وأن يكون مقرًنا الدائم هو وورشة الجرافيك؛ وذلك مكافأة على الموافقة على القيام بهذا العمل الشاق والذي رفضه باقي العاملين.
اشتقت إلى مديحة، فذهبت إلى البوفيه وطلبت منها كوباً من الشاي. هذه المرة أعطيتها خمس جنيهات جديدة وضعتها في يدها مع الضغط عليها بقوة والنظر في عينها.
ـ ده كثير ياباشمهندس.
ـ على إيه يا مديحة، انتي تستاهلي أديكي أكثر من كده.

أخبرتها عن ترشيحي لها مع ذكر الحافز المادي والعمل المريح معي.
عندما بدأت في تحضير الشاي، وقفت على باب البوفيه، وأخرجت علبة السجائر:
ـ مديحة عندك كبريت؟
ـ أمال فين ولاعتك؟! هي اسمها إيه ياباشمهندس؟
مع الدلع والنظرات الخبيثة المتبادلة، أخرجتُ الولاعة وتمنيت أن أخرج شيئاً آخر وأقفل حجرة البوفيه علينا. بدأ آذان الظهر من الزاوية المقامة في المبنى، خرج جميع الموظفين حتى المسيحيين منهم في «فسحة».
بعد هدوء أمواج البشر للذاهبين إلى الصلاة المزيفة، نظرت يمينا وشمالا، وانتظرت لحظة مواتية..
ـ مديحة فيه نملة ماشية علي.. وآشرت على مؤخرتها الكبيرة.
ـ موّتها ولا هتسيبها تقرصني في...
مددت يدي وقمت أولاً بالمسك الخفيف
ـ ماتت ولا لسة؟
دي طلعت فوق على صدرك.. أموّتها برضه؟
آذان الاقامة..
مددت يدي.. إلى كوب الشاي ووقفت خارج البوفيه للمراقبة كي أعود ثانيةً لتكملة ما بدأته فأمسك صدرها ذو الحلمات النافرة. شاهدت عبير وهبة قادمتين احداهما ترتدي شبشب الوضوء..
ـ مش هتصلي؟
ـ بكرة..
عبير مثلي لا تصلي لكنها مثل الآخرين تذهب في فسحة الصلاة.
ـ هتعزمني على كباية شاي ولا أنت بخيل زي ما بيقولوا؟
ـ خدي جنيه وروحي اشربي حاجة ساقعة..
ـ لا أنا عايزة حاجة سخنة عندك..
ـ مافيش يا عبير بالسلامة عشان بفكر في الشغلانة بتاعة الأرشيف.
ـ تحب أكون معاك؟
ـ ماشي بس تسمعي الكلام وتنفذيه زي مديحة..
ـ ذوقك عفش إيه اللي عاجبك في الحتة ديه، لا شكل ولا منظر دي بتاعة بوفيه..
ـ مزاجي.. أصل أنا بحب النسوان المليانة من ورا.. ولا مش فاكرة؟
ـ أمال فين مديحة؟
ـ جوة بتعمل لي كباية شاي.

ـ أمال إيه اللي في ايدك ده يا أستاذ؟
اليوم الأول
تم قطع السلسلة والقفل العتيق المغلقين من زمن بعيد، الكل أخبرني بالنصيحة المعهودة «خلي بالك دي ساكنها عفاريت، والأمن بيسمع بالليل صوت قطط وكلاب وصراخ..». مع دخول أول ضوء شعرتُ بفضول كبير، هذه مغارة بها خبيئة.. كنز مفقود..رائحة التراب العتيق والهواء المكتوم والعفونة من بقايا جثث الفئران، وبنات عرس جعلتني أشعر أني أكتشف مقبرة فرعونية: بقايا طاقم انتريه أسيوطي أكلته الفئران، صور قديمة، وثيقة زواج، شهادات تقدير، آلاف من الأوراق المبعثرة، مروحة السقف مطبوع عليها «مصنع ٤٥ الحربي.. الجمهورية العربية المتحدة». فرحت بهذا الكنز أكثر من شعوري عندما لمست مؤخرة مديحة.
ولكني تنبهت: هذا التراب الغزير سوف يؤثر على لمعان حذائي الأسود
أخبرت السعاة الذين أصبحت مديراً عليهم: غداً بداية العمل الجاد جداً من يريد أن يذهب الآن فليذهب.
تحدث معي أبو علي على انفراد:
ـ أنا صدري تعبان والتراب كثير قوي.
ـ خلاص يا أبا علي، لما حد يسألك قول أنا شغال في الفترة المسائية مع الأستاذ الباشمهندس، وخليك في البيت مع أم علي كمان. إنت في سن أبويا بس ابعتلي علي.. ده سر بيننا والفلوس ماشيه زي ما اتفقت مع المدير وكفاية مديحة وابنك علي في الفترة المسائية.
شعرت بنجاح الخطوة الأولى
تم تقسيم مواعيد النساء في المقبرة الفرعونية على فترتين: عبير وهبة بالإضافة إلى عمال النظافة من بداية العمل وحتى الساعة الثانية مع مراعاة مواقيت الصلاة والإفطار والشاي والسجائر، ثم الفترة المسائية من الساعة الرابعة وحتى السادسة.
«علشان زوج مديحة حمش» كما أخبرتني.
ـ كويس ساعتين في اليوم يا مديحة، عشان نلحق نعمل فيهم حاجة.
بالإضافة أيضاً إلى ولي العهد، علي ابن أبي علي الذي لم أعرف اسمه الحقيقي حتى الآن.
اليوم الثاني
كنت متغيراً من جميع النواحي: حذاء كاوتش أزرق، بنطلون باجي قديم.
اندهشت عبير:
ـ أول مرة أشوفك بالشكل ده!

ـ أمال فين هبة؟
ـ خدت جواب تأمين صحي عشان ضرس العقل وجعها قوي.
ـ وانتي فيه حاجة واجعاكي؟
ـ أنا زي الفل.. هي مديحة مش جايه معانا؟
ـ لا هي في الفترة المسائية.
ـ ناوي على إيه يا ديب؟
ـ على اللي يقدرنا عليه ربنا.
ـ وعلي هاتعمل معاه إيه؟
ـ مافيش، هشوف ليه تصريفة.
ثم ذهبتُ ومعي واحدة من الحريم الحكومي..
السعاة في انتظاري ومعهم كل الأسلحة المطلوبة لهذا العمل الجبار، الذي سوف يُذكر في تاريخ المجمع الثقافي. أخبرتهم أن يخرجوا الأوراق والصور مع الفصل بينهما. شغلني سؤال: كل هذه الأوراق لماذا؟ ما مصير هذه المهمة المقدسة، وهذه الصور، والجوائز الخاوية، التي تبدو عليها جمال وقوة الصنعة رغم مرور الزمن عليها.
بحثت وعبثت في الأوراق والمهملات. وجدت سيفاً نحاسياً أعجبني، ومذياعا خشبيا قديما من الزمن الغابر. فكرت أن أحتفظ بها لنفسي، عندما عرفت أن مصير هذه المقبرة هو التخلص منها.
سمعت ضحكات من عبير وهمهمة من السعاة. اكتشفوا صورةً لامرأة عارية تماماً، مرسومة على طراز النساء ممتلئات الأرداف والأوراك، وصغيرات الصدور في العصر الروماني. كانت في حاله لا بأس بها والبرواز أيضاً.
اقتربت أكثر من الصوره حملتها بيدي. زادت الهمهمات. نظرت إلى عبير:
ـ ايه رأيك في اللوحة؟
ـ حلوة بس قديمة.. مش حرام يرسموا واحدة عريانة؟
ـ لا مش حرام ده اسمه فن يا أبلة ما انتي شغاله في وزارة الثقافة، يبقي شغلك حرام في حرام ولا ايه؟؟
ـ د انا قصدي يعني لو.. كان يغطيها شوية..
تدخل عم جمعة في الحديث
ـ نطلعها بره مع الزبالة يا أستاذ؟
نظرت إليه ولم أرد.
ـ روح صلي احسن يا عم جمعة.. كلكم كمان روح صلوا وتعالوا بعد ساعة ولا اقولك محدش ييجي أشوفكم بكرة..
ـ انا ريحه البوفيه اجيبلك حاجه من هناك؟؟

ـ شكراً!

عادت سريعاً.

ـ هتعمل ايه في الصورة؟

ـ هعلقها في البيت في أوضة النوم فوق السرير. لا معايا على السرير..

أشرت إليها أن تدخل لكي تشاهد شيئاً جديداً تم الكشف عنه. بعد تمنع مصطنع دخلت المقبرة. قمت بمسك صدرها من الخلف. حاولت الهرب إلى الداخل، لكني كنت غرزت مخالبي في صدرها، استسلمت واستدارت:

ـ ناوي على ايه؟؟

ـ أبداً مافيش

ـ أمال عمال تلف ودور معايا ليه.. وادخلي علشان أوريكي..

ـ باجرب فيكي الفخ يا عبير، وبعدين انتي عفيفة مش بتاعة الحاجات دي.

ـ مش ده كان كلامك معايا... خليكي من برة برة ومديحة من جوة جوة

ـ مش كده يبقي عدالة ولا ايه؟

جاءت مديحة في الميعاد المتفق عليه، وأخبرتني أن أبا علي يريد علي في مشوار مهم. أظهرت سروري لها بسبب هذا الخبر

ـ كويس علشان نشوف شغلنا كويس..

وكانت نتيجه اللقاء أكثر مما توقعت.

أجلس دائماً على نفس الكرسي وأمامي كل ما أملك، كتب، علبة سجائر، ولاعة، أوراق بيضاء. في يدي سيف لم أستخدمه حتى الآن. أمامي تمثال لجواد يقف على مذياع لا يعمل. فكرت جدياً في شراء حصان؛ ليس جواد حرب أصيل. فأنا لا أقدر بالطبع على أثمانها. فكرت في خيل «العربجية». ذهبت إليهم، وشاهدت أحصنة كثيرة يجمعها البؤس، وسوء المعاملة، والجوع؛ نفس حال أصحابها، لكن أكثرها مازال يحتفظ بعزة النفس. واحد يقف في شموخ.. وآخر دائم الحركة يضرب بحافره الأسفلت، يترك أثراً واضحاً في أسفلت الحكومة.. وآخر يتمنى الموت تكاد رأسه أن تصل إلى الأرض يقف على أرجل نحيله، يغير محور ارتكازه بينها باستمرار.. الحدوة غير مناسبة. وآخر يبحث عن شيء ليلتهمه. أي شيء يأتي به الهواء.. حزمة برسيم لاكثرها جوعاً.. بدأت الخيل جميعها في الصهيل.. الكل جائع.. يومي كان أسودَ.. كل خيول الأمراء سوداء.. جواد السلطان أدهم.. حتى الجاليش[1] أسود. تذكرت أن لكل يوم عند المملوك جوادًا مختلفا: الأسود ليوم السبت، والأبيض المعروف بالبوذ للأحد، والأخضر ليوم الاثنين، والكُميت وهو الأحمر ليوم الثلاثاء، والأربعاء للأبلق، والخميس للأشقر. ولكن كل خيولي وأيامي سوداء، وساعتي التي تموت ويتوقف

قلبها عن الخفقان، عندما أنزعها من معصم ذراعي الأيمن، تحتفظ بلوني الأصلي خلفها. ساعة ذات عقارب.. المينا سوداء والأرقام بيضاء، بها خانه لمعرفه اليوم دائم النظر إليها.. أشعر أن ساعتي قريبة مني، وأنا وهي في سباق مع من لا أدري. عشرات من الساعات خلف الزجاج في حاله خفقان، وهي الوحيده التي كانت ميتة.. أشرت إليها.. دفعت الثمن.. هزّها بعنف، كانت في غيبوبة أقرب إلى الموت. لماذا أحرص كل هذا الحرص على أشيائي؟ حذائي اللامع دائماً.. لوحاتي..أدوات الحفر .. حقيبتي السوداء.. سيفي النحاسي.. ساعتي.. أخذت ساعتي ساعات كثيرة مني في النظر إليها.. أشعر أن ساعتي قاربت على الانتهاء.. سأنتهي موظفاً حكومياً أقصى أمله في النهايه المعاش، وكارنيه النقابة، والتأمين الصحي، وحضور معارض الأفاقين والمزيفين. الشجاعة صبر ساعة كما قال المملوك

أقف أمام المرآه فلا أجد نفسي

أحرص دائماً على تغطية حذائي الوحيد البراق؛ لأخوض به كل يوم في بحار من التراب.. أطفأت المصباح وذهبت للنوم. أعطيت المنبه العتيق إجازة من عمله الروتيني كل يوم.. يأتي من بلاد بعيدة إلى بلاد أبعد.. لا يعرف أباه أو أمه.. ليس له وطن، أو إخوان، أو أصدقاء .. لا أحد .. لا يعرف سوى التاجر الذي اشتراه أو خطفه: إنه المملوك سيف الغد، يمر على المقابر الضخمة، أول شيء يراه في الوطن الجديد . سؤال.. أين سيكون قبرك؟ أين ستوضع رفاتك؟ أفي صحراء تحوم حولك جوارح الطير، أم في النهاية سيجردونك من دروعك اللامعة والزرد والسيف الأحدب، أم ستكون ضربة سيف تجز رأسك وخوذتك المسقطه في ماء الذهب؛ لتذهب إلى العشرة المبشرين.. لابد أن تعبد السيف والرمح وآلة السلاح سبب وجودك.

لا أعرف أبي.. هل باعني وأخذ ثمني القليل ليأكل به؟ أم كان يعرف مستقبلي القادم وما ينتظرني من مجد ومهارة وفن.. لابد أنه مثل تاجر العبيد، بل أحقر منه باعني لأي شخص يدفع الثمن.. كل رأس أجزاها، أنا المملوك الفارس هي رأس التاجر والأب معاً. ثم تنبت من جديد لأقطعها بسيفي من جديد . إخوتي هم السيف والطبر[2]، وأصدقائي الزرد والمغفر والدبوس . يومي الأول في الطباق[3]: أسوار عاليه، ومزاغل كثيره، وبرج أتابك العسكر، ومقدم أجناد الحلقة، محترفي الحرب .. ويقف الجميع في سكون منتظرين؛ من اليوم تستعد الذاكرة للتخزين. اليوم الذي يموت لا يحيا أبداً.. عشرة لا مجال لإصابتهم: إنهم الخاصكية، أمهر من يلعب بالسيف وأقرب للسلطان من أولاده. ، يقع الاختيار عليه مع عدد قليل لينضم إليهم. يسرق نظر أستاذه الذي سوف يقوم بتعليمه فن الموت.

أستاذي ليس بالطويل أو القصير، إنه شرط الناس ، أعرض ما فيه كتفاه وذراعاه. به عرج خفيف حين يترجل عن جواده الأدهم؛ لهذا السبب يطلقون عليه «الأعرج». أسيكون اسمي الثاني حتى الموت هو الأعرج؟

في اليوم الموعود أقف أمام السلطان لأتقلد أول سيف ورمح وجواد عربي أصيل. أركع أمام السلطان، وأقبل الأرض بين يديه. أرتدي خوذتي ودروعي التي تحمل الرنك المملوكي. لم يحضر أستاذي هذا اليوم. رمية سهم من خشداش استقرت بين الدروع كانت نهايته. ولم يُعرف له قبر. أرمح بجوادي.. أظهر مهارتي، ألعب انداب الحرب والرمح – اول المنازل والترتيب، والفتح، والكشف، والمقص، والكلاب، البراني والجواني، والسلسلة، والسباسرة، فني.. أنال إعجاب الحاضرين.. أطلق النشاب على القرعة الذهبية، وأصيب الطير الذي بداخلها. أستل سيفي الجديد. إنه أثقل وزناً من سيف الطباق، ولكنه أكثر اتزاناً وبريقاً. أميل يمينا وشمالا.. أترجل عن جوادي.. أنزع المغفر عن وجهي.. أقبل الأرض مرةً أخرى بين يديه. أسمع كلمات لم أفهم أكثرها.. أصبحت من الخاصكية.. حديدٌ على لحم.

كان يومي الأول في الكلية. أشعر أن الزمن سرقني في خمسة قرون.. جئت في غير زمني. أقف أمام طبيب يفحص قوة إبصاري، وكف يدي. أنجح طبعاً في الاختبار. أتجول بين أركان مدرسة الفن والمهارة ـ كلية الفنون الجميلة .. تماثيل كثيرة.. أكثرها بحاجة إلى ترميم.. حرس.. البنات أكثر من الأولاد.. مبنى أثري قديم أصعد درجاته المتهالكة.. بقايا مشاريع التخرج يعلوها التراب.. ومن خلفها تسكن القطط والحشرات وأشياء لم أرها. شعرت أن يومي الأول مختلف عن يوم المملوك: لم أعرف أستاذي، أما هو فقد عرف مصيره في أول يوم له في الطباق.

أشعر بهزة الموبيل في حزامي، إنه مصطفى إسحاق ـ صديقي من أيام الكلية ـ يخبرني أن صديقنا الغزالي يموت! أخبرته أنني لا أحب أن أرى أصدقائي أو أي إنسان قريب مني في مرحلة النهاية.. كان يعرف، لكنه أخبرني أن أبا الغزالي قد لامه في آخر اتصال، وسأله: أين الأصدقاء الذين كانوا في الصور؟ أين الزملاء؟ لم يجد إجابة..

اتفقنا على الذهاب سوياً. أخذت إذناً مسائياً من العمل.

قابلتُ إسحاق على محطة «عزبة النخل» حيث يسكن في تمام الساعة الواحدة. بعد المصافحة والعناق، استقللنا المترو حتى محطة النهاية «المرج». لم نتحدث حتى الآن عن هذه الزيارة.

خانكة.. واحد خانكة..

كان صبي تباع على سيارة ميكروباص يعوي بكل ما أوتي من قوة. السيارة تبدو عليها مظاهر التجديد. ظهرت علامات الفرح على وجه الصغير عندما ركبنا، فأغلق الباب.. جلست بجوار الشباك وانحشر إسحاق بجسمه الضخم بيني وبين السائق.. لم تتغير ملامح المنطقة: نفس الزحام والسوق، حتى محل العصير الذي كنا نشرب منه، وماسح الأحذية الذي كان غزالي يتحداه على حذائي اللامع دائماً، نفس الحُفر والمطبّات على الطريق. كنا نعاير الغزالي أنه يسكن في مكان «بيئة» وكنت أدافع عن هذه المنطقة التاريخية.

عندما عبرنا مزلقان القطار أشار إسحاق للسائق:

ـ يمينك يا رياسة.

تذكرت الشارع الذي يقع به بيت صديقي.. أميزه بعمود إناره تبدو عليه مظاهر الملكية، كان الغزالي قد علق عليه جمجمة حصان مازالت تعتلي قمته. لم يكن شارعاً، بل هو أقرب إلى زقاق أو حارة صغيرة، ليس بها إلا بيت الغزالي وعائلته. كان في استقبالنا أخوه الصغير «آداب تاريخ» معجبٌ بشخصيتي وأسلوب حياتي، وخاصةً الولاعة. علّمه أخوه التدخين، وأنا علمته البايب، وعلمه إسحاق معاكسة البنات. استقر في النهاية على البايب. كان يصفني بأني «قديم».. وكان يعجبني هذا الوصف الغريب. استقبلنا والبايب في فمه. الدور الثاني هو مقر العائلة، وجدنا أبا الغزالي في انتظارنا. توقعت وكذلك إسحاق أن يكون هناك نوع من المعاتبة.. ومعه الحق طبعاً.. ارتسمت على ملامح وجه الأب ابتسامه، ومد يده بالمصافحة. قدم لنا الشاي مع السجائر، أبٌ ديمقراطي حقيقي . كم تمنيت أن يكون لي أب مثله.. مهندس زراعي، لا تفارق الابتسامة شفتيه. مدمنٌ لأم كلثوم، وهو سبب حبي لها. كان قد أعطاني شرائط لها أحتفظ بها حتى الآن.. دائماً يجلس بجوار الباب على كرسي فوتيه قديم، أشعر أنه الوحيد الذي يجلس عليه.. يدعونا دائماً للجلوس معه.. عندما كنا نذهب للغزالي في الزمن القديم، كان يقدم لنا الدخان والشاي، ويحكي دائماً عن تاريخ هذه المنطقه: «الخانكة» أو «الخانقاة» كما كان اسمها قديماً. أباح لي بسره: أنه صوفي.. يذهب لإحدى الزوايا الأثرية المهجوره؛ ليتعبد ويختلي بنفسه.. وهو الآن، بعد مرض ولده، يذهب إليها أكثر من الأول. يزرع في البيت الصبار فقط.. وتكعيبة ضخمة للعنب من عمر منزل العائلة.

وبعد السؤال عن الأحوال والعيشه والنساء، انضم إلينا شقيق غزالي الصغير، وأشعل غليونه، واشترك معنا في الحديث.

حجرة الغزالي في نفس الدور، هي الحجرة الأخيرة في الصالة، وبها

بلكونة كبيرة. كانت أقرب إلى مخزن صغير، جمع أثاثاً ومقنيات بشكل متناسق: أسياخ حديد، كراسي، صناديق فارغه، ملابس في كل مكان، مشاريع الكلية ولوحات قديمة، رائحة الغرفة، مميزة بسبب بقايا الطعام. توقعت تغير كل هذه الأشياء، لكنها بقيت على نفس الحال، الشيء الوحيد الذي تغير هو صاحبي: أصبح مثل هيكل عظمي.. تغيرت ملامحه تماماً.. لا يستطيع الكلام ولا يتحرك إلا بمساعدة أخيه أو أبيه. ظهر عليه السرور لرؤيتنا. خرج والده وبقي أخوه الصغير معنا. كان مستلقياً على السرير، فساعده إسحاق على الجلوس.. ثم اقترح أن نجلس في البلكونة. أشار بإصبعه ناحيتي ثم إلى فمه ـ يريد سيجارة. أخبرني أخوه أنه مازال يدخن، وأن أباه يعرف هذا.. يعاني من مرض خبيث ـ أشعلنا جميعاً، وبدأنا في التدخين، وكذلك أخوه بغليونه. وأخذنا الحديث عن الذكريات. ومع الضحكات، كان الوقت يمر بسرعة، وشعرت بالسعادة رغم حزني على صديقي الغزالي، الذي كان أكثرنا انطلاقاً ومغامرة مع بعض التهور. تناول جميع أنواع الخمور والمخدرات. وكان هو أمهر من يسن أدوات الحفر الخاصه بالحفر على الخشب. حجرته في أيام الكليه كانت مثل المعسكر، وكثيراً ما كنا نقيم عنده في أيام المشاريع، وكان مثلي الأعلى في علاقاته بالبنات والنساء. كانت علاقته بالنساء دائماً من خارج أسوار الكلية، ماعدا واحدة أخبرنا أنه يحبها بجد ويريد الزواج منها في المستقبل.. استمرت هذه العلاقه لسنة واحدة، ثم رجع إلى نسائه. أما أنا فكانت تعجبني بشدة فتاة قادمة من سوريا. لم تكن تتحدث مع البنات الأخريات. حاول الكثيرون التقرب منها أو الحديث معها.. وباءت جميع هذه المحاولات بالفشل. تأتي في سيارة سوداء مع سائق»نوبي» يرتدي دائماً بذلة سوداء، ورابطة عنق سوداء أيضاً. قال لي الغزالي: إن مفتاح هذه القطة مع السائق. وفشلت المحاولة بالطبع.

شعرها كان أسود، يصل حتى أسفل ظهرها، وعيون لم أر لونها من قبل، وقوام لم أشاهد مثله. شعرت بالحب.. كانت قادمةً من حلب. تأتي دائماً في موعد المحاضرات وترحل بعدها سريعاً.. لا تجلس مع أحد.. لا تتحدث مع أحد.. دائماً ترتدي السواد كأنها في حداد. كانت معي في نفس القسم، وكانت فرحتي الذهبية عندما عرفت أنها معي في نفس يوم الحفر والطباعة في الورشة.. طلبت مني أن أقوم بقص الزنك وتهذيبه؛ لأنها لا تعرف مثل بقيه بنات الدفعه وأولادها أيضاً. طلبت منها أن تقترب مني وأنا أقوم بقص الزنك وتهذيبه؛ لكي تعرف وتتعلم هذا السر الخطير. أصبحت تجلس معي في كل مشاريع الحفر. لا تبتسم رغم محاولاتي

لإضحاكها. تتحدث بهدوء، وتدخن مثلي مع اختلاف نوع الدخان. اقتربنا أكثر من بعض، شعرتُ أني مملوك لها، ومع ذلك لا أقوى على حبها.. المفاجأة .. متزوجة من قريب في سوريا.. تقاليد العائلة والعمل والثروة يكبرها بعشر سنوات. لم تعرف حتى الآن معنى الحب.. بكت بين يدي.. أخبرتني أنها تعرف أني أحبها منذ محاولتي الفاشلة مع السائق لكي أعرف أخبارها. وحكت لي: زوجها متزوج قبلها.. وهي أدمنت الشرب والمخدرات لفترة من عمرها. ذهبت إلى منزلها أكثر من مرة لمساعدتها في عمل مشاريع وأبحاث ولوحات كانت تُطلَب منها؛ قدمت لي نفسها مقابل الخدمات الفنية.

تذكرت المملوك. إنها زوجة أستاذي من علمني الفروسية وفن الحرب. أطلقت عليها لقب «خوند» ورفضت المقابل. أخبرتني أن زماني قد زال. لم تعد هناك فروسية أو نبل.. لماذا أتيت أكثر من مرة إذن؟.. هل تحبني فعلاً.. أم لتنام معي وتشبعني وتمتلكني.. أنا لست زوجة أستاذك.. انا لست أميرة.. أنا صعلوكة عاهرة ارتميت في أحضان الخدم والعبيد.. لم أجد من ينقذني.. الكل أخذ مني قطعةً فأصبحت أشلاءً ممزقة، وأنت لا تزال تعيش في أوهامك..لتعش إذن في أوهامك.. لتعش إذن في أوهامك..

وكان هذا آخر لقاء بين الخوند والمملوك..

حان وقت الطعام. طلبت من أخي الغزالي الصغير أن نطلع إلى سطح المنزل. وافق أبو الغزالي، فحملنا الطعام والسجائر وبساط قديم والغزالي نفسه وصعدنا. جلسنا على الأرض. شاهدنا منظر الغروب ورحيل الشمس من خلف برج القديم، كان الغزالي قد أخبرني أنه معسكر قديم للجيش من أيام محمد علي؛ ـ يشعرني بشيء لا أجد له تعريفاً منذ أيام الكلية، وحتى هذه اللحظة التي أحمل فيها صديقي مريضاً يحتضر. تذكر إسحاق أيام الشتاء عندما كنا نشعل النار هنا فوق السطح؛ حسن طرخان وإسحاق عليهم تجهيز المكان: النظافه، جمع الأخشاب، تحضير الفرش. كانت لديّ بندقية لصيد الطيور، وكنت أجيد التصويب. نذهب للصيد في الخانكة، أنا والغزالي. نصيد اليمام، أو الحمام، أو أي نوع من الطيور الصالحة للأكل. ثم نرجع بالغنيمة ونشوي الطيور في الليل، ونأكل حول النار. لا نتذوق الغنيمة ولكن نتذوق طعم الحياة البدائية.

اشترك الغزالي معنا بالضحكات، وأشار بيده إلى فلنكة سكة حديد موجودة على السطح بقايا النار مازالت بها. كنا قد قمنا بسرقتها من مخزن للسكة الحديد، وكانت ثقيلة جداً، استغرقت أكثر من ساعة لكي تمسك بها النار.. وانتهت الزيارة، نظر غزالي بقوةٍ في ملامحنا. أمسكت دموعي..

تصافحنا.. تعانقنا. ذهب أخوه الصغير معنا حتى نركب الميكروباص. ووقف الغزالي على السطح لكي يودعنا من أعلى مثل أيام الكلية. أخذ إسحاق في التلويح له بقوة. أشار الغزالي إلى عمود الإناره فلم نفهم. أخبرنا أخوه ـ إنها جمجمة الحصان، يريد أن يصيبها أحدنا بحجر. أخذنا نحن الثلاثة في قذف الحجارة على جمجمة الحصان فلم يصبها أحد. و لمحت والد الغزالي والابتسامة قد فارقته، يحمل ابنه الكبير ويختفي به من على السطح. تذكرت جملة من أحد الأفلام القديمة: "ملعون أبو الدنيا".

ودعنا أخوه الصغير عند الموقف، وأصر على دفع أجرة الميكروباص. أوصيناه على أخيه وأبيه، وبالاتصال إذا احتاج لأي شيء ـ عند نزولي من الميكروباص نبهني إسحاق إلى أن الحذاء محتاج إلى تلميع. ذهبت إلى ماسح الأحذية، لم يتذكرنا تحدثت معه حتى تذكر.. سألنا عن صديقنا الثالث، وظهر عليه الحزن عندما عرف مصيره.

لم نكن قد تحدثنا أنا واسحاق في أي شيء حتى الآن:

ـ أخبارك إيه؟

ـ ماشي..

ـ اتجوزت؟

ـ ما انت عارف.. موظف حكومة بكام جنيه يادوب يكفي نفسه..

ـ أمال بتعمل إيه في عيشتك؟

ـ عادي... أروح الشغل، وأضيع وقتي مع أي واحدة.. اتمشى.. أرسم.. أحفر.. عايش يا مصطفى.

ـ طب مشاريعك فين يا صاحبي؟ إنت أكثر واحد فينا كان بيفكر وعنده موهبة وايدك حلوة وتقديرك كويس.. ايه اللي حصل؟

ـ ده واحد شكله بيفكر.. ما انت يا مصطفى كان عندك اللي عندي.. ايه اللي حصل لك؟ ابوك طلع جدع معاك. انت واخوك جوزكم في البيت وفتح لكم فرن فينو ومحل ألبان وجبنة..

ـ اقولك أنا.. انت جبت من الآخر.. عايز المضمون بيت ودخل ثابت وعروسة يبقى الفينو يا معلم.. مش فن وزفت.. البلد دية عايزة الفينو مش الفن يا صاحبي..

ـ بقالك قد ايه مامشيتش إيدك على ورقة أو مسكت قلم رصاص.. ولا أقولك.. رسمت مراتك؟ طبعاً لا..

ـ ايه يا عم الفلسفه دي كلها؟ لسه دماغك شغالة.. خللينا في المهم اخبارك أيه في الحريم يا ديب؟

ـ والله انت دماغك فاضية.. صاحبك بيموت وشوف إنت بتفكر في إيه.. يا أخي انت مش متجوز؟

ـ يا بيه.. هو أنا كفرت..

ـ اقطع تذكرتين علشان عايز أنام..

ـ لا.. هتاكل معايا في البيت.

ـ مش هينفع يا مصطفى.. خلليها مره تانية.

ـ أمي عايزه تشوفك.. وباعتة لك بوسة..

ـ ايه يا مصطفى هو أبوك بطل يبوس كمان؟

ـ يا واد يا ابن الـ....

ـ خلليها وقت تاني.. بجد عايز أشوفك.. نخرج نغير جو.. إنت عارف أنا في الحكومه الصبح وباقي اليوم فاضي وجمعه وسبت أجازة.. معايا فرد حكومي إيه.. من اللي قلبك يحبه.. أشوفك على خير يا مصطفى

ـ مع السلامه يا فنان..

لم أسمع هذا اللقب منذ زمن.

نمت هذه الليلة بملابسي وحذائي البراق. لم أفهم شيئاً مما حدث، ولا أريد أن أفهم.

مرّ يومان ولم أذهب للعمل. عندي رصيد كبير من الإجازات. اتصل صديقي حداية ليطمئن علي.. أخبرته أني مرهق من قلة العمل. قررت أن أحصي ما ادخرته من أموال بعد سبع سنوات عجاف في الحكومة. كل ما أملك ستة آلاف جنيه في البوسطة. أشعر برغبة جادة في إدخال شخص في حياتي غير مديحة. تفحصت ملابسي. مر عليها زمن وحالتها جيدة. لا أعرف ما الذي أفعله في حياتي؟ زيارتي لصديقي الذي ينتظر الموت جعلتني أفكر: لو اختفيت من الذي سيلاحظ اختفائي؟ ليس عندي حلقات كثيرة من البشر..المملوك لديه حلقات كثيرة.. أستاذه ـ خشداشيته ـ جواده ـ ومماليك يحملون اسمه ولقبه..

مر أسبوعان على المهمة المقدسة لعامل الارشيف المختار. عثرت على أوراق تعيين من زمن النكسة. فكرت في الاتصال بأصحابها والاطمئنان عليهم، ولكن التليفونات كانت من خمسه أرقام. نقلت معظم الأوراق والصور وبعض الأثاث من المقبرة إلى بيتي. قررت أن يكون بيتي مقبرة.. تعددت لقاءاتي مع مديحة في العمل والبيت. تأتي للغسيل والطعام والنوم. جعلت نفسها زوجتي وليس مجرد عشيقة.

اتصل إسحاق وأخبرني هذه المرة أن الغزالي قد مات منذ يومين. رفضت الذهاب لتقديم واجب العزاء. كانت النهاية قريبة ومتوقعة والجميع كانوا

في انتظارها؛ الأب والأم التي لم نرها إطلاقاً منذ أيام الكلية.. لم أشعر بالحزن على صديقي.. قررت أن أعيش سعيداً دائماً، وبكل ما أملك.

في طفولتي لم يكن هناك فرح.. الدراجة في الصغر طلب من أب بخيل لم أشعر يوماً أنه رجل. رفض بحجة أنه يخاف عليّ من السيارات .. الحذاء الرياضي الذي تمنيته كثيراً تطور إلى حذاء بلاستيكي ذي رائحة عفنة من تحلل الجلد مع العرق. وعلى الرغم من ذلك، كنت سعيداً بامتلاكه. وعندما كبرت قررت أن يكون حذائي من الجلد الأسود غالي الثمن..

التاسعة صباحاً في مكتب البريد.. أسحب النقود التي ادخرتها طوال عملي في الحكومة. شعرت بفرح كبير. أحسست بقوة.. أكثر مما أشعر به مع مديحة على السرير. تناولت الفطور في أحد المطاعم الفاخرة الغالية في وسط البلد، وأعطيت الجارسون بقشيشاً كبيراً.

سوف أشتري ملابس جديدة غالية الثمن على الطراز الإيطالي: قميصا أسود وبنطلونا وحذاء جديدا وحزاما أسود، وحافظة نقود أيضاً. تنبهت لشيء، وهو أني لم أمتلك بذلةً حتى الآن.. رجعتُ لنفس المحل الشهير. واشتريت بذلةً سوداء اللون بفتحة واحدة على الموضة. أسير وأنا أحمل كل هذه الأشياء. اتصلت بمديحة، وأخبرتها أن تأتي اليوم. رفضت في البداية، ولكن بعد التلويح بورقة جديدة من فئة المئة جنيه، أخبرتني أنها "هاتتصرف".

ذهبت إلى شارع "الشواربي" حيث أشهر فاترينة لقمصان النوم الفاضحة ورخيصة الثمن أيضاً. العاملات تبدو عليهن الخبرة في الإنسانيات. ملامحهن متشابهة تماماً: نفس نوع الماكياج الرديء المميز من رائحته، والحجاب ذي الألوان المزركشة غير المتناسقة، والصدور البارزة المرفوعة بتعمد واضح، وأسلوب في الحديث من نفس نوع قمصان النوم. أخبرتهن أني أريد قميصا ذا تأثير قوي فعال، تنافسن في ما بينهن في الترشيح. أخذت جميع أرقام التليفونات الخاصة بهن، ودفعت الثمن، وأعطيتهن جميعاً بقشيشاً سخياً.. عند الخروج كان هناك سؤال من إحداهن: لمن هذا القميص؟ لزوجتك؟ ألقت السؤال بنبرة خبيثة مع النظر في كف يدي. أخبرتها أنه لعشيقة من النوع الثقيل وأنا أنظر في عينييها بقوة، وإلي صدرها الذي اقترب مني كثيراً..

ـ اتصلت مرة ثانية لاستعجال مديحة. كانت تزيل الشعر الزائد، كما قالت، وطلبت مني على استحياء كيلو كباب وكفتة لأنها لم تتناول الغداء.

كان آخر شيء قمت بشرائه هو أربع زجاجات من البيرة وكيلو كباب وثمن كيلو "لب سوبر" وماكينه حلاقة محترمة. قررت أن تكون ذقني على

الطراز المملوكي القديم. أخذت حماماً، وارتديت جلباباً على اللحم، واستلقيت على السرير أنتظر، وأتخيل مديحة في قميص النوم الأحمر..
أيقظني جرس التليفون، لقد غفوت قليلاً..مديحة على الباب.. لقد نسيت المفتاح هذه المرة. دخلت وعلى وجهها آثار إزالة الشعر؛ بعض التورم ناحيه الخدود وزاوية الحاجب والجفون.
كان أول سؤال لها عن الكباب.. أحضرته من المطبخ، فجلست على السرير تأكل في نهم. ذهبتُ إلى الثلاجة وأخرجت أول زجاجة بيرة.. رفَضَت أن تتناول منها رشفةً واحدةً.
ـ ليه يا مديحة؟
ـ عشان البيرة حرام!!!
ضحكتُ.. كان ذلك أول شيء يضحكني هذا اليوم. شربت وحدي وأخذت في تناول الكباب معها. أنزع ملابسها وهي تأكل: الإيشارب، ثم العباءة السوداء ذات الخرز الذي يشير إلى الأماكن الجنسيه في جسدها الممتلئ، ثم ملابسها الداخلية التي ظهرت عليها آثار الترميم والتجديد، حتى أصبحت عارية تماماً وهي لا تزال تتناول الكباب في تركيز شديد. تنبهت، وتذكرت قميص النوم. فخرجت إلى الصالة وأحضرت الشنطة.. أخبرتها أن تغمض عينها.. فتحت عينيها وأرجلها وأشارت إلي بالاقتراب.. مسحت يدها في السرير، ووقفت، وبدأت في ارتداء القميص الأحمر. كان جسمها خارجا من كل زوايا القميص وخاصةً الصدر. ظهرت عيوب الصناعة الرديئة ـ الخياطة بدأت في الظهور وانفصلت الحمالة، وأصبح أحد نهديها حراً طليقاً، واقترب من خصرها، في ما الثاني مازال يحاول. نامت على ظهرها.. وأخبرتني أن الأكله كانت قوية، وأنها سوف تكتفي بالنوم وأن أفعل أنا ما أريده.. احترمت طلبها. يبدو أن هذه النوعية من الطعام نادرة الحدوث في حياتها.
ولكن أنا قررت أن أستمتع بكل شيء..
فعلت معها كل شيء طبيعي وغير طبيعي. كانت بدائية، لها طعم البدائية الجميل. النهاية كانت مرهقة: إنهارت فوقي كل أكوام اللحم التي كانت تعلوني، وبصعوبة ألقيتها جانبي. قامت وأحضرت القصافة وأخذت في تقليم أظافر قدمي.
كانت هناك بقايا من الوليمة، طحينة وخبز، وما تيسر من أصابع الكباب، تناولتها في نهم وسرعة مع مديحة. ذكرتني بالمائة جنيه.. أخرجت حافظة نقودي الجديدة، وأعطيتها الورقة المتفق عليه. نالت ذقني إعجابها، فأخذتُ في شرح نوعية الذقون المملوكية. وعلى الرغم من أنها لا

تعرف القراءة والكتابة، ولكنها كانت تستمع لي في اهتمام. كم تمنيت أن أكون مملوكاً لا يجيد غير استخدام يديه والسيف.. كنت أفهم الصفة التي أطلقها علي أخو الغزالي، أني "قديم" عندما أذهب لمقابلة عمل. كان الجميع يطلبون خبرةً في استعمال الكمبيوتر والأجهزة الحديثة في مجال الفن الذي درسته. وأنا لا أحب هذه الآلة بل ولا أحترمها. كنت مثل المملوك الذي رفض الأسلحة النارية الحديثة، واعتز بما يملك من مهارة اليد التي تمسك بالسيف الأحدب.. هو الذي أوقف الزمن عند مهارته رغم أنه خسر معاركه الأخيرة ولكن مهارته ظلت خالدة عبر الزمن.

غادرت مديحة وهي سعيدة بالكباب والقميص والنقود. فكرت أن استحم.. نهضت سريعاً.. على بريق دروعه..

ـ من أنت لكي تتشبه بي؟

ـ أنا؟ حتى تهذيب ذقني مثلك أصبح كثيراً علي.. لم أجد شيئاً آخر يقربني منك غير ذلك. لا أدري ماذا أفعل.. ليس عندي جواد أو أستاذ أو حتى خشداش مثلك.. حتى سيفي ليس ملكي.. لا أملك غير فني، صناعتي، وفني غير مطلوب ولا أحب الآلة الحمقاء مثلك تماماً.. هل نسيت؟

ـ لا لم أنس ولكن. متي سوف تشهر سيفك في وجه أعدائك.. هل هذه هي حياتك أيها الفاشل البائس؟ عمل غير نافع.. تُقتل يدك كل يوم ومهارتك يعلوها الصدأ..

قال هذه الكلمات، وأخذ بريقه يخفت إيذاناً باختفائه.

ـ صبراً ساعة.. صبراً ساعة.. انتظر معي، أو خذني معك، فهذا ليس عالمي.. هذا ليس عالمي.. يا بك.. يا بك

اختفى بريق دروعه وجلست وحدي في الظلام..

التفتُ لأجد عمي مسعود جالساً على الرصيف بقامته القصيرة، وشاربه المهذب بعناية فائقة، وملابسه التي قام بتصميمها وتنفيذها ترزي هندي، عندما كان يعمل في السعودية مساعد مهندس، في مصنع إسمنت. بعد المصافحة والأحضان قال لي:

ـ أبوك في المستشفى.

قالها وهو يضحك. وظهرت أسنانه الذهبية. لم أفتح فمي. بدأ في إخباري بنفس القصة المكررة التي تحدث عند كل مرة، يأتي أبي فيها في إجازة هو وزوجته العزيزة. أصيب بأزمة قلبية بسبب تناوله منشطات جنسية. أخذ كمية كبيرة هذه المرة؛ لأنه تزوج عرفي من أنثى في الثلاثين، وهو في أواخر السبعينيات. قامته أقصر من قامة عمي مسعود. تخيلته وهو جالس بجوار العروس فضحكت. وأخذ عمي المبتسم دائماً في الضحك

معي، فملأت ضحكاتنا الفضاء وسكون الليل
ـ لازم تيجي معايا المستشفى دلوقتي.. أبوك بيموت.
ـ كل مرة نفس الكلام.. وبعدين؟
ـ أنا عمك.. وحاسس إنها الأخيرة.. أصل النتاية المرة دي جامدة أوي عليه.. أنا نفسي تعبت معاها.
ـ طب هو في أنهى زفت على دماغ أمه؟
ـ يعني مش عارف.. أبوك بخيل ولا نسيت.. حتى وهو بيموت في مستوصف خيري.. ببلاش يعني..
ركبت معه سيارته الـ ١٢٨ الحمراء وانطلقنا. أمام المستوصف طلبتُ من عمي أن ينتظر قليلاً.. ليس من الذوق أن أذهب إلى أبي وهو يموت من غير هدية. دخلت إلى الصيدلية الملحقة بالمستوصف، همست في أذن السيدة التي تقوم بالبيع.. أحمرً وجهها
ـ عايز علبة ولا شريط؟
اشتريت شريطاً لمنشط جنسي صناعة محلية رميته على أبي العزيز ـ أفزعه
الحجرة بها أشخاص لم أعرفهم من قبل.. أهل العروسة. جلست وأخذت في التدخين بالقرب من أبي، كان يضع جهاز تنفس صناعي، نزعته من على وجهه المتعب والخائف مني دائماً
ـ مبروك يا عريس.. أمال فين العروسة؟
تقدمت مني، امرأة متوسطة الطول ترتدي عباءةً سوداء ملتصقة على جسمها، تغطي شعرها المصبوغ بالأصفر.. اللون أحمر يغطي الفم، وكحل أسود بعناية حول العينين . نفس النوعية المحببة لأبي العزيز.
تصافحنا فضغطت علي بكف يديها، ونظرت في عينيها طويلاً، وأخذت رقم التليفون الخاص بها.. أخذت في البكاء المصطنع.. وضعت يدي على كتفها، وهمست في أذنها:
ـ متخافيش أنا معاكي وجنبك.. أي حاجة عايزاها أنا سداد.
طلبت مني أن أنتظر لحين انتهاء الزيارة. في كل هذا الوقت.. لم ينطق أبي بكلمة واحدة.. الخوف ينمو بداخله حين يراني. اشترى لها شقة تمليك بكل ما تحتويه من أثاث، غير الذهب والملابس.
قام عمي بتوصيلنا إلى شقتها في المعادي.. رحل بمفرده مع ابتسامته الدائمة. نمت على سرير أبي. نمت مع زوجة أبي..
أخيراً انتهيت من المهمة المقدسة في حجرة الأرشيف القديمة. معظم محتويات الحجرة أصبحت عندي في المنزل: أكوام هائلة من الأوراق

والصور القديمة، وبعض الأثاث. عندما سألت المدير عن سبب هذه المهمة قال لي: "عشان ندهن الحيطة من جديد". كل ذلك من أجل حجرة سوف تحتوي من جديد على نفس الأشياء مرةً أخرى مع موظف آخر وزمن آخر. ولكن، النتيجة كانت أنه قد أصبح لي مكتب جديد بالإضافة إلى عبير وهبة، وهي الجائزة التي حصلت عليها في نهاية المهمة.

مازالت معي نقود كثيرة؛ لا أعرف ماذا أفعل بالباقي؟ اشتريت ملابس جديدة، وساعة جديدة بدون حجر، ونظارة ثمينة، وذهبت إلى أفخم المطاعم، ونمت أكثر من مرة مع مديحة، وتحرشت كثيراً بعبير.. وماذا بعد.. لا أعرف..

كالعادة بعد انتهاء وقت العمل، تجولت في وسط البلد للفرجة على نفس المحلات التي بها نفس البضائع في الشوارع نفسها. قابلت حسن طرخان أحد أصدقاء الكلية القدامى، أسرعت من أمامه قبل أن يصدمني بسيارته. هذه سيارة جديدة غير تلك الخاصة بالأسرة. "لسه برضه غشيم يا طرخان". رحل بعد سلام سريع . تذكرت.. حسن طرخان كان موهبة ميتة.. كنت أنفذ له مشاريع الكلية، وأقوم باختيار الألوان؛ وهو الآن موظف مهم في إحدى شركات الكمبيوتر، بمرتب كبير يظهر في ملابسه وسيارته الجديدة. وهو متزوج. أعطاني الكارت الخاص به. لديه ثلاث أرقام للموبيل واثنان للشركة. شعرت بالحزن على نفسي.. أحضرت ورقة وقلم رصاص.

بدأت في كتابة ما أعرفه وأجيده والأشياء التي أعرفها وأمتلكها.. الكمبيوتر.. ما سبب كرهي الشديد لهذه الآلة. الأب العزيز ـ أبخل خلق الله ـ ترك أمي وهرب للعمل في دول النفط . كان يرسل كل شهر بعض المال، ويشكي دائماً ضيق الحال. لا أتذكر ملامح وجهه جيداً، حتى الآن أستطيع أن أحصي عدد المرات التي تحدثت معه. لم ينظر في عيني مرةً واحدة.. يرسل المال إلى أخيه وتقوم أمي بالإمضاء على ورقة تثبت أنها أخذت مصاريف الشهر. عرفت أنها انفصلت عنه نهائياً، لا تتحدث عنه بالشر أو بالذم، كانت تحاول أن تحببني فيه، وتظهر صفات الشهامة والرجولة، وأنه يعمل بالخارج من أجلنا. تأخذني لزيارة أعمامي وأولادهم والأم الكبيرة. أعجبت بصورة لرجل في بدلة عسكرية، عرفت أنه عمي الشهيد، أصغرهم وأكثرهم شهامة ورجولة، من مكافأة الجيش التي صرفت لهم بعد استشهاده قام أبي ـ أكبرهم ـ بشراء أرض وبناء منزل للعائلة.. الآن الكل يتشاجر ويتعارك من أجله، وإثبات أن مال الأرض والبيت من عمله وعرقه. . وعندما ماتت الأم الكبيرة، وقفت للصلاة عليها ولم أنطق بأي دعاء أو

سورة ولم أحمل نعشها.
كان طلبي الثاني والأخير من الأب البخيل هو "كمبيوتر". كنت في سنتي الأولى بالكلية، تنبهت لأهمية هذه الآلة في مجال الحفر والفن من الأساتذة والمعيدين، كان الثمن وقتها غالياً بالنسبة لأمي.. وكنت أعرف الإجابة مسبقاً.. أمي هي من نصحني أن أطلب من أبي. ذكرتها بماضيه الأسود، قالت لي: إن هذه أوهام في رأسي، وإني مازلت صغيراً لا أفهم طبع أبي العزيز.
لهذا السبب كرهت هذه الآلة؟؟
عندما أحضروا آلة السلاح الناري الجديدة للمملوك رفضها، لا تحتاج لشجاعة ولا فن ولا قوة؛ لو أعطيتها لصبي صغير أو امرأة لأخافت بها من يواجهها. إنها قوة زائفة.
اتخذت قراراً.. تكررت هذه الكلمة كثيراً في حياتي
عندما أقوم بالتوقيع على لوحاتي وأوراقي أو أي شيء، لا أذكر سوى اسمي فقط، حذفت اسم الأب ووضعت مكانه لقب بك. المملوك أيضاً ليس له اسم أب، كان يكتب اسمه ثم اسم السلاح الذي يجيد استخدامه، سواء كان سيفا أو طبرا أو صفة معينة في جسمه؛ أو ينسب نفسه إلى اسم أستاذه، أو تاجر العبيد الذي باعه، أو لثمنه.. سيفي النحاسي الذي عثرت عليه في حجرة الأرشيف، أحلم به في يدي وأمامي إنسان أقوم بقطع رأسه. أعرف هذه الرأس جيداً، وأتمنى أن يصبح الحلم حقيقة. المملوك أيضاً يقدر أن يجز رأس أبيه لو طلب منه أستاذه. للأسف، لا أستاذ لي.
ألمح بريق دروعه من بعيد، راكباً جواده الأصيل.. أهرول مسرعاً إليه.. أطارده من شارع لشارع، بين البيوت والعمارات الصماء.. يضرب بمهمازه الذهبي بطن الجواد ليشب على قائمتيه الخلفيتين، فيزداد بريق ولمعان درعه الحديدي.. أحاول عبثاً أن ألحق بالمملوك.. فلا أستطيع أن أشق غبار جواده الجامح..
مرةً أخرى أسمع جرس التليفون ـ خيراً؟ أتمنى أن يكون المتصل "خوند". أتركه بعيداً وأذهب للحمام. لا أعرف ماذا أفعل. هذبت ذقني في حذر شديد، وغسلت أسناني والمتصل يحاول جاهداً.. وأخيراً..زوجة أبي العزيز
ـ أبوك تعيش انت..
ـ والله العظيم.. بجد يا مرات ابويا؟
أخذت صديقي عمران زميلي في الإنسانية، وذهبنا إلى بيت الأب. وجدت زوجته ومن خلفها خادمة من آسيا، وبعض أقاربها. مددت يدي بالمصافحة. أخَذَت في البكاء المصطنع.. والخادمة أيضاً..

أقف على الغسل أشاهد وأتعلم. لم أسمع أحدا يطلب له الغفران أو الجنة والنعيم المنتظر. حتى النساء لم تبك واحدة منهن، عدا الزوجة والخادمة بدموعهما الزائفة. وقفت خارج المسجد انتظر قدوم الجثمان. عدد المصليين لم يتجاوز أصابع اليد. يصل الركب إلى مدافن الأسرة العريقة. مساحة من الأرض أقرب إلى الخرائب. شواهد القبور لا وجود لها. هو بخيل حتى في الموت. نظرت إلى حذائي لقد اتسخ حتى أصبح عربة لنقل الرمال وفقد بريقه.. بعض الآيات والأدعية والكثير من كلمة آمين.. "على إيه". أنظر إلى السماء وأراقب السحب وأتخيل صدر امرأة.. عيون الخوند وشعرها الطويل.. خيولا جامحة ـ مملوكا يرتدي خوذةً يخفي بها ملامح وجهه.. أهبط من السماء إلى الأرض.. آمين.

ـ يقف عمي بجواري بقامته القصيرة، وشاربه المهذب بعناية، لتلقي العزاء. ثم حداية وشريف من العمل الحكومي. ثم عمرو وإسحاق من أيام الكلية، ثم عمران وقليل من الناس لا أعرفهم. لم أبك ولن أبكي. ولكني أشعر بثقل في قلبي يزعجني. هل سأبقى على هذه الحالة من القسوة والجمود؟

ـ شيء وحيد أفرحني، وهو حصولي على إجازة لمدة أسبوع من العمل الحكومي لحزني الشديد على الفقيد، اتصالات كثيرة من الموظفين للمواساة والتعزية.. مديحة من أول الزملاء في الاطمئنان والسؤال، أخبرتها أن تأتي لتنظيف المنزل وغسيل الملابس و.. الباقي. قررت أن أقضي أسبوعاً جميلاً.

المنبه العتيق يخبرني بالوقت المتفق عليه. أغتسل وأرتدي أفضل ما عندي من ملابس. أخرج حذائي اللامع ونظارتي الشمسية الغالية، وأخرج إلى الشارع للتجول، وأبتسم في كل وجه أراه.. ثلاث شجرات بأطوال مختلفة، ومن خلفهما مقعد من الرخام الأبيض مثبت على قواعد من الحجر الجيري، وأربع درجات من السلالم، نال منها الماء اليومي لسقاية الزرع، والكثير من الورود ذات الألوان الجميلة. جلست على المقعد الرخامي، وأشعة الشمس تنعكس من ألواح زجاجية، تكسو واجهة بناية لتشعرني بالدفء. أشعل سيجارةً وأنظر خلفي. شبابيك خشبية بنية اللون، توجد كتابة على الجدار بالنحاس البارز. قررت أن أدخل هذا المكان لأكتشفه.. الساعة الآن العاشرة صباحاً.. الأبواب والشبابيك وصوت الموسيقى الذي سمعته بمجرد دخولي من الباب الخشبي الكبير، أخذني إلى عالم آخر. كتب والكثير من الكتب، أربع طاولات مستديرة من الخشب الأسود، أعبر بينهما في سلام. أبحث في الكتب والعناوين. ألمح كلمة تاريخ. أذهب مُسرعاً إليها. وجدت كتباً عن المماليك.. أخذت أكثرها من على الرف،

وجلست على إحدي الطاولات السوداء.. تفحصت أول كتاب.. ولم أشعر بأي شيء من حولي. لم أعد أسمع الموسيقى، ولا ضجيج السيارات التي بدأت في الظهور، ولا صوت الكعب المميز الذي يملأ المكان ذهاباً وإياباً.. ولكني شعرت بضوء يدخل من الباب الخشبي الكبير أقرب إلى الهالة، ورائحة أعرفها جيداً لم ألتفت إليها. استنشقت الهواء بشدة من حولي. أتت من خلفي ومرت بجواري وجلست على الطاولة التي أمامي بزاوية قليلاً. تلبس نظارةً سوداء كبيرة، وشعر يكسو ظهرها، وماتزال ترتدي السواد.. لم أصدق نفسي.. هي.. الخوند!

وقفتُ. وتقدمتُ إليها ثم وقفت أمامها.. كشفت عن عيونها.. جلست بجوارها. لم نتحدث. رحت في حوار صامت.

أين أنتِ الآن.. أين ذهبتِ.. ماذا فعل الزمن معك؟. من الذي انتصر الحزن أم الفرح. الفن أم الآلة الحمقاء. لقد خسرت كل معاركي وقررت أن أصبح مملوكاً ضائعاً لا سيد له ولا سلطان.. أتمنى أن يكون مصيرك غيري يا خوند.. أتمنى أن تكون الجراح قد اندملت.. تعلمين جيداً أني أحبك ومازلت.. أنتِ الشيء الوحيد الجميل الذي حدث في حياتي. أنتِ اختياري الوحيد...

انتهيت من كلامي وانتظرت، فلم تجب. أخفت عينيها مجدداً بالسواد، وألقت بكل شيء على الطاولة في شنطة يدها السوداء. صوت الموسيقى وضوضاء السيارات العابرة أخذ يعلو شيئاً فشيئاً، والهالة أخذت في الأفول وكذلك الرائحة، أتشممها بصعوبة فلا أجدها.

أسرعت ناحية الشباك الخشبي..أبصرها ولا تبصرني.. أراها ولا تراني.. أصبحت معزولاً عنها.. لا أجرؤ على تحطيم الزجاج.. صرخت بأعلى صوتي: يا خوند.!! أبحَرَت مجدداً في النهر.. وتركتني على الشاطئ مع الحطام.

أشهرت سيفي النحاسي. وجدته، قد فقد الكثير من بريقه، فعكفت على تلميعه. يجب أن أقتله. لن يمنعني حجمه أو سرعته أو مهارته. أشعر أنه يراقبني باستمرار.. حين أذهب إلى الصالة أو الحمام حتى في نومي العادي أو حتى حين أكون مع مديحة.. لا أعلم من أين جاء. جميع النوافذ أغلقها بإحكام. في البداية تركته يرعى..إنه يستمتع بمراقبتي.. أكثر من مرة حاولت قتله لكن أتراجع.. كان يسهر معي أحياناً رغم فارق السن والحجم.

ـ ما سر العداوة التي بداخلي.

هل هي مجرد رغبة لاختبار سيفي النحاسي الذي عثرت عليه في حجرة

الأرشيف، أم لخوف مديحة المستمر منه، عندما تبصره أعلاها.. أم لمجرد إشباع شهوة القتل بداخلي؟ وضعت الكرسي الوحيد الذي أملكه في وسط الحجرة، وقفزت فوقه. بدأ في التمايل والاهتزاز مع كل ضربة من ضرباتي الطائشة. أسرع وأرشق مني كثيراً رغم بدانته الظاهرة عليه مؤخراً. أقفز وأثب على أطراف أصابعي العشرة. نظرة سخرية أجدها في عيونه الدائرية المحدقة مع كل ضربة من سيفي النحاسي. شعرت بالتعب يتسلل إلى ذراعي. منيت نفسي بالفوز في نهاية المعركة مع البرص العنيد. أخذت نفساً عميقاً، ثم أنزلت ذراعي التي تقبض جيداً على السيف استعداداً لتسديد الضربة القاتلة والأخيرة. فانتبهت لشيء خطير؛ السيف من النحاس ليس من الصلب. انكسر السيف بين يدي. حتى معركتي مع البرص هزمت فيها.

ـ البيت الذي أسكنه أحتفظ فيه بكل ورقة رسمت عليها مشاريع من أيام الكلية. كلها تحمل تقديراتي: جيد جداً، وامتياز. أعرف تاريخ كل شارع أمشي عليه بحذائي اللامع. من وقت لآخر حين أشعر أن كل الأبواب مقفلة أمامي أذهب وأتجول بين المقابر. مختلفة الأحجام والارتفاع مثل مقام أصحابها.

مشروع التخرج النهائي كان عن المملوك الشارد. الوحيد الذي نجا من المذبحة الرهيبة، قفز بالجواد من أعلى أسوار القلعة. أصبح الحارس الشخصي للسلطان العثماني. الوحيد الذي يحرسه بالسيف، وليس بآلة السلاح الجديدة، وأقرب إنسان للسلطان.. المهارة. نعم أمتلك مهارة مثل مملوك.. عندي الورق والأقلام وأدوات الحفر وجميع الخامات، البعض منها لا يصلح بسبب قدمها، والبعض الآخر يصلح.. لم يكن الكمبيوتر هو السبب الوحيد لكرهي الشديد للأب.. هناك أشياء أخرى أهمها إحساسك بالإهمال وعدم الاحترام.

العمل بالحكومة يجب أن ينتهي من حياتي. هذا قرار أعمل الآن على تنفيذه. سوف أعمل بالفن، بالمهارة.. باليد.. بالسلاح.. بالمملوك الذي في داخلي.

ارتديت البذلة الجديدة. ذهبت بها إلى العمل الحكومي وفي داخلي قرار بالاستقالة. تحدث معي "محمد حداية" عن البذلة وعن ثمنها والساعة الجديدة والنظارة الشمسية. أخبرته عن قراري بالاستقالة والتفرغ للفن والعمل به كمصدر رزق أيضاً. حداية شخص طيب ذو طابع ريفي، حتى الآن لم يدخل في علاقة مع أنثى من أي نوع.. أخته الصغيرة التي تعمل معنا تسيطر عليه تماماً، عيونها عليه طوال الوقت داخل العمل الحكومي..

يخاف منها. تقوم كل شهر بأخذ مرتبه للادخار، ولتسديد قسط الجمعية. موظف تقليدي. أخذ يشرح لي ميزة العمل الحكومي.. ويحكي عن المعاش المضمون.. وعن ساعات العمل القليلة التي نهدرها بأي شكل لكي تمر.. وعن التأمين الصحي الذي لم أستعمله حتى الآن.. وعن الذهاب متأخراً.. والانصراف قبل الميعاد بساعة كاملة على الأقل.. وأتوبيس العمل الحكومي.

كانت هذه الميزات هي الحياة بالنسبة لمحمد حداية. لا أستطيع معارضته فلكل منا حياته وطموحه. وصلت إلى نتيجة متوسطة.. إجازة بدون مرتب مع الاحتفاظ بالوظيفة الحكومية. كانت هذه فكرة حداية. وكانت مديحة أول من حزن لهذا القرار، وكذلك هبة.. عبير كانت سعيدة لأنني سوف أترك مديحة ترجع إلى بقية الزملاء كما أخبرتني.

قررت أن يكون يوم الجمعة هو يوم الاحتفال. وبهذه المناسبة دعوت حداية واتصلت بأشرف زميلي السابق في العمل الحكومي. وهو الآن يعمل في مؤسسة مرموقة. سعى والده ونجح في أن يوظفه مكانه قبل أن يتقاعد. أشرف يرتدي بدلة كاملة ورابطة عنق صيفٍ وشتاء. أطلقت عليه مستر "بوند". اتصلت أيضاً بعمرو صديقي من أول عمل مارسته من أيام الكلية. أصبح هناك أربعة لهذا اليوم.

عمرو سوف يحضر سيارة أخيه التي استلمها من العمل، يأخذها عمرو للخروج ولمشاوير الشغل. يجب أن يكون الاحتفال صاخباً ماجناً. موعد الالتقاء في السادسة مساءً. اعتذر حداية في آخر لحظة. كنت متوقعاً ذلك. خالته مريضة لذلك سوف يجلس في المنزل لكي تذهب أمه وأخته. حضر أشرف كعادته متأنقاً في بدلته هذه المرة بدون رابطة عنق. بناء على نصيحتي المتكررة. نقطة الالتقاء كانت في وسط البلد: ميدان التحرير.

ركبت أنا وأشرف المترو. ارتديت أنا أيضاً البدلة الوحيدة التي لديّ. كان أشرف سعيداً جداً عندما رآني بها. هذا اليوم على حسابي. كل من يريد شيئاً يطلبه وأنا على التنفيذ. "حباً وكرامة".: كلمة المملوك المفضلة. يقولها عندما يطلب أستاذه أو سلطانه منه أي شيء.

سنذهب للسينما.. عمرو يعشق السينما، ويوسف شاهين خاصةً. يشبهه أيضاً.. يدخن نفس نوع السجائر. أتذكر اليوم الذي كنا نبحث فيه عن كوفية يوسف شاهين ـ كما كان يطلق عليها ـ اشتراها أخيراً. يوم واحد فقط قام بلفها حول رقبته، اليوم التالي كان عنده نزلة برد واحتقان. لم أرها بعدها ثانية

أشرف لم يذهب للحسين حتى الآن. يسمع عنه فقط وعن قهوة الفيشاوي.

طلبت من عمرو أن أقود السيارة. ليس معي رخصة. "مافيش مشكلة". جلسنا على القهوة التي يسمع عنها أشرف. انبهر وجلس يحدق في الأجانب وخاصةً النساء.

ـ تحب تشوف أكثر من كده؟

ـ مش فاهم.

ـ رحت كبارية يا أشرف؟

ـ ملهى ليلي يعني؟

ـ أيوه يا عم ..

ضحك عمرو في خبث ثم انفجرنا من الضحك وانضم إلينا أشرف

ـ النهاردة هنشربك بيرة وهنخليك تشوف رقاصة بترقص وهنخليك كمان تنقطها. محمد حداية لازم يكون معانا.

اتصل به أشرف وأخبره بموضوع الكباريه والرقاصة. حداية يواظب على الصلاة في مسجد العمل الحكومي فقط. هو أيضاً حاول مع مديحة، لكنه مجرد تلميذ في هذا المجال. نشاهد أفلاماً جنسية على كمبيوتر المكتبة الخاصة بمجمع الفنون. أخبرته أن هذا اليوم على حسابي. ينتظرنا أمام السوبرماركت الخاص بهم الساعة الواحدة تماماً وعلامات السرور والفرح واضحة عليه. أنا الشيطان الذي يحقق أحلام الشر الجميل

عالم جديد على أشرف وحداية. أضواء خافتة. دخان كثيف. ألوان مختلفة غير متناسقة. صوت المطرب المزعج من خلف الراقصة. كباريه متوسط المستوى، يميل إلى الأسفل. نوع البشر مختلف. هناك العمة والجلباب الصعيدي والبدلة والحذاء الأسود اللامع غالي الثمن والشبشب. كبار وصغار.

الاستقبال حار من جميع العاملين، فاليوم هو الجمعة. لا يأتي كثيرٌ من الزبائن في هذا اليوم. تركت أشرف ومحمد حداية يختاران الطاولة.. أسرع حداية ليجلس بمواجهة الراقصة تماما. أعطيت الجرسون ورقة بمائة جنيه ليفكها "عشان تنقيط الراقصات"..

ترقص في بطء وتتثاقل وتنظر إلى الأرض دائما. لا تجيد الرقص. معظمهن لا يجدن الرقص. يجيدون الانحناء والانكفاء لاظهار مفاتن الجسد، من أجل التحية وتلقي النقطة من فنة الورقة ذات الجنيهات الخمسة.. اللغة الرسمية في البارات وعالم الراقصات. حداية وأشرف في تركيز تام مع صدرها ومؤخرتها الكبيرة. وعمرو لحاله مع زجاجات البيرة يمارس هوايته في رص الزجاجات الفارغة أمامه للإحصاء. أنا معها أيضاً ليست راقصة ولا عاهرة، بل جديدة في هذا الكار. البدلة محترمة بعض الشيء. ترتدي

دبلة في كف يدها الشمال. معظمهن لا يرتدين خواتم الزواج. ألقيت عليها النقود. لم تفعل شيئاً. ولا حتى ابتسامة إغراء. العازفون يبدو عليهم أنهم من أصحاب السوابق والمسجلين خطر. المطرب عجوز يرتدي باروكة فاضحة وبذلة مؤجرة.

- لم يطلب حداية ولا أشرف أي شيء حتى الآن. طلبت بيرة لكل منا. تحمس أشرف وأخذها على فمه وهو ينظر إلى الراقصة. أعرف هذه النظرة جيداً. حداية اعتذر.. طلب بيريل من دون كحول. رقصت رأس عمرو كما هو متوقع. دائما يريد أن يثبت لنفسه شيئاً كلما شربنا. لا ينظر إلى الراقصة ولا يسمع الصخب والأصوات المزعجة.

الراقصة الثانية كانت مفاجأة، عاهرة تماماً. شعرت أنها خارجة من أسطوانة إباحية من النوعية التي يشاهدها حداية على الكمبيوتر من وراء العائلة ليلاً. ليحكي لي عنها صباحاً. صدر كبير جداً. الوجه لم أتبين ملامحه من كثرة الأصباغ عليه. كأنها تعمل متخفيةً. مؤخرة تميل في كل اتجاه وخاصة تجاهي. فأنا الوحيد حتى الآن الذي ألقى بالورقة الرسمية على الراقصة التي سبقتها. وضعت يدي في جيبي. تحمست أكثر وأظهرت نوعية الرقص المطلوبة. انحنت لدرجة أن صدرها كاد أن يقفز في يدي. أخرجت ورقة نقدية كان مقرها بين صدرها. شعرتُ بسخونة جسمها. وصل حداية وأشرف إلى نقطة الانطلاق. أعطيت كل واحد منهم بعض النقود للتحية. تعثر حداية وهو يحاول الصعود إليها. استغل أشرف الموقف وأخذ منه النقود ورقص معها وأخذ في التلويح والصياح، وأراد أن يمسك صدرها. معه حق.. الصدر كبير لدرجة أني شككت أنه منفوخ. لكن المكان فقير وصدرها كان يتحرك بحرية كاملة.. صعدت إلى أشرف. وضعت رقم الموبايل وسط النقود ودسست كل الأوراق وسط الصدر العظيم. اقترب منها المطرب على استحياء وأخذ هو الآخر يرقص معنا لكي يهدئ الجو الساخن. عمرو أخذ يتحدث باللغة الانجليزية مع نفسه ومعنا.

- اقتربت الساعة من الخامسة صباحا وقت الإغلاق. دفعت الحساب والبقشيش قبيل آذان الفجر. أخذت مفاتيح السيارة من عمرو.. الخطوات في منتهي الدقة والهدوء منا جميعاً حتى محمد حداية الذي لم يشرب بيرة. الصمت كان الصديق الخامس. أخذ كل منا مكانه في السيارة الزرقاء. أنا القائد وبجواري عمرو وفي الخلفية حداية وأشرف. سألتُ عمرو:

ـ معاك حشيش؟

أخرج على الفور سيجارةً ملفوفةً من علبة المناديل التي تستقر في مقدمة السيارة بجوار المصحف. أشعلتها.

رن جرس التليفون رنة قصيرة. رقم غير معروف. كانت الراقصة ذات الصدر الأعظم. بمنتهى السرعة والصراحة سألتني:

ـ حاتدفع كام وفين وكام واحد معاك؟

ـ أنا لوحدي.

انتظرنا في السيارة حتى جاءت. كانت تنوي الانسحاب عندما رأت باقي الجثث. جلست بين حداية وأشرف. أشفقت عليهم. أنزلنا حداية أمام بيته وكان يريد أن يبقى معنا. ترجل بصعوبة من فخذها الملاصق لفخذه. أشرف أخرج لسانه لحداية يعتقد أنه الفائز هذا اليوم. حزن عندما توقفت أمام منزله. أخرجت لسانها لأشرف مع التلويح بأطول أصابع الكف. عمرو مايزال في عالمه. أخذت في التقرب مني وأمسكت برأسي وعنقي. بدأت في العمل من أعلى لأسفل. فتحت سوستة البنطلون وأخرجته. لا يوجد وقت لأخذها إلى المنزل. نجرب العربية. الكنبة. طلبت من عمرو أن يتولي القيادة العامة. قفزت إلى الخلف.. فتحت العباءة السوداء. أرجلها طويلة أخرجت واحدة من شباك السيارة، والأخرى في الدواسة. أخيراً استطعت.. صدرها طبيعي. دعكته. نوع جديد من النساء. هزة قوية مع القفز إلى الأمام والخلف. اصطدم عمرو بالرصيف وأخذ في التماوج بالسيارة. أخذت هي في الصراخ والدعاء إلى الله. جذبت فرامل اليد مع مسك عجلة القيادة. ما يزال في عالمه. توقفت أخيراً على الرصيف. الأوتوستراد خال لا يزال. خرجت من السيارة لأري الخسائر. العجلة اليمنى الأمامية دُمرت تماما والخلفية أيضاً، ودخان كثيف يخرج من موتور السيارة. سوف نبقى في السيارة حتى إشعار آخر. نظرت إلى السماء. كانت صافيةً تمام من السحب. تركت الباب مفتوحا. ورفعت أرجلها وبدأت من جديد. ولا يزال عمرو في عالمه.

كان الفجر لايزال مشتبكاً مع خيوط الظلام عندما ظهرت جحافل ابن عثمان. يقف في أول الصفوف غاطساً في الحديد، يغطي ما تبقى من وجهه الجركسي بالمغفر، يمتطي حصان الحرب الأصيل، أحب جواد إليه يحثه على الحركة بالمهماز الذهبي. الزرد يزداد لمعاناً وبريقاً حتى في الظلام. به صفائح حديدية عليها ألقابه ورنك السلطان، واسم أستاذه. يُزين الخوذة بعدد من الريشات السوداء ومحفور عليها أسماء العشرة المبشرين بالجنة. يتحسس مقبض سيفه في شوق وتلهف إلى اللقاء. يشعر به جواده فيكاد أن يطير به من على الأرض، يضربها في خفة ورشاقة

فتصطك دروع المملوك مع درع الجواد في تناغم، ويسمع هدير المدافع وضربات البنادق المتتالية سلاح الجبناء. يزيد من حماسته. يطبق بقوة على مقبض سيفه الأحدب. يُخرجه أخيراً من غمده في رشاقة وسلاسة. أحدب شديد البريق، مُسقط في ماء الذهب: إنه سيف يطقان أشهر سيوف المحاربين من ورثة أسيادهم الأيوبيين، به نقوش لآيات تحث على القتل. يلعب به في الهواء، ليشعر بمدي اتزانه في يده.. وأخيراً.. ينطلق نحو الموت.. نحو المجد.

أغمضت عيني ثم فتحتها لأرى جحافل عربات النقل الثقيل وهي قادمة تطلق نفيرها المزعج. أتخيلها تصرخ من ثقل الحجارة التي تعاني من حملها. رفعت يدي. تنبهت، أقف في منتصف الطريق لا أريد التحرك. لوحت بقبضة يدي القابضة على سيف العدم في وجه العربة القادمة. يسميها المملوك العجلة.. لا يدري من أي جهة سوف تأتي طلقة الموت من آله السلاح الجديدة.. أصوات قوية نتيجة احتكاك عجلات العربة العشرة وهو يحاول السيطرة عليها قبل أن تبتلعني. توقفت أخيراً. رائحة حريق قوية من العجلات العشرة، مازالت الآلة تزمجر وتتحرك نتيجة ثقل الحجارة. ومازال عمرو في عالمه. ترجل السائق من فوق الآلة الجبارة. نحيف جداً في ملابس قديمة. حافي القدمين. هالات سوداء حول عينيه الزائغتين. شوارب تبتلع ما تبقى من وجهه الممصوص. تقدمت إليه وماتزال قبضة يدي تمسك سيف العدم. أخرج علبة سجائر وبدأ في التدخين. طلبت منه واحدة. أعطاني العلبة كلها. التباع في الآلة يراقب ما يحدث. نظر السائق ناحية السيارة التي استقرت فوق الرصيف، ورأى العاهرة وعمرو قطعت الصمت بسيف الكلام – حباً وكرامة – استقر سيفي في غمده إلى الأبد حيث الصدأ. لم يفهم معني الكلمة، وشعرت بخوف وارتباك في عينه. طلبت منه عجلة المساعدة، فأعطاني رقم إحدي سيارات النجدة وعرض على المساعدة. تقدمت من العاهرة. أعطيتها المال المتفق عليه. وطلبث من السائق أن يأخذها إلى أقرب مكان. وافق على الفور وظهرت أسنانه السوداء. تحركت الآلة وأطلقت نفيراً مزعجاً أكثر من مرة. ألقى لي التباع بعلبة سجائره ولوح لي . أخذت أنا أيضاً في التلويح له. بدا وكأن الانتظار سوف يطول. شعرت بالجوع. بحثت في السيارة عن أي شيء يصلح للأكل. يقضي عمرو معظم حياته في هذه السيارة. فهو أكثر إنسان يكره البيت وزوجة أبيه وابن أبيه. لذلك تجد هنا زجاجات بيرة، وزجاجات مياه فارغة وملآنة، وعلب عصير وبقايا طعام.. كل شيء في السيارة والحقيبة الخلفية.. فتحتها، وأخذت في البحث والعبث

بداخلها. وجدت صديريا أسود قمت على الفور بارتدائه. ووجدت بقايا موز وبرتقالا تظهر عليها أثار العفونة والتحلل، بدأت في الأكل بنهم شديد. عمرو بدأ يخرج من عالمه. قذفته بعدد من حبات الموز والبرتقال. أبدى إعجابه بالصديري وسألني من أين اشتريته؟

ـ من معرض عربيات يا مسطول..

أخذ في الطواف حول السيارة. وجدت صعوبة في تحديد تعبيرات وجهه، ليس هناك أي انطباع مما حدث. توقف أمام شنطة العربية يبحث عن شيء ما. سيجارة حشيش أشعلها، وجلس على الأرض وظهره إلى السيارة. فتحت الأبواب الأربعة ليدخل ابن عثمان وجنوده الأجلاف..إنهم على الأبواب منذ زمن ولم ينتبه لهم.

يقتربون كل يوم من السور حتي وصلوا للأبواب. لا فائدة من المقاومة. لقد أثبتت الآلة الحمقاء تفوقها وحسمت المعركة.. استسلم، وأدخل في أمان ابن عثمان.. الأنفس التي تربت في العز لا تقبل الذل.

جلست بداخل السيارة أعبث بالمذياع. استقر في النهاية على إذاعة القرآن الكريم وعمرو يدخن الحشيش بالخارج. تتقدم منا عربة النجدة. "الحلو للإنقاذ البري" مكتوبة بخط قبيح. جلس عمرو بجوار السائق وبقيت أنا مع الجثة الحديدية فوق سيارة الانقاذ.

أن يصبح الفن هو المصدر الأساسي للحياة شيء صعب مثل البهلوان الذي يمشي على الحبل؛ مطلوب منه قوة الأداء والتجديد؛ لأن هناك الكثير من المهرجين.

تقدمت إلى المدير بورق الاستقالة.. نعم الاستقالة.

نفس الكلام والنصائح من الزملاء. يتفق جميع الموظفين في كل التفاصيل؛ نفس الحركة الثقيلة حتي من النحيفين منهم.. نوعية الطعام.. المحافظة على الصلاة الزائفة.. فلوس الجمعية أول كل شهر.. شراء مزيل العرق من هدى بائعة العطور المضروبة. وللنساء نفس البدانة والصدور المترهلة.. ملامح الوجه التي تتحور إلى الذكورة مع الوقت، ويظهر شعر الذقن من أسفل الحجاب. كثرة الشكوى من قلة المعاشرة الجنسية مع أزواجهم... وفتح أرجلهم وغلقها.. ورائحة العرق المتراكمة رغم تواجد هدى بائعة العطور المضروبة باستمرار.

أول يوم من الحرية.. أصبحت ملك نفسي. أخرجت آخر نقود معي لأشتري كل ما يلزمني لعمل ورشة حفر صغيرة في منزلي القديم. ذهبت إلى مصنع المعادن في الفجالة لشراء ألواح الزنك والأحماض، والأحبار والأوراق، وأدوات حفر جديدة، وأقلام رصاص. كان حي الحسين هو

محطتي الأخيرة في هذا اليوم. اشتريت من هناك شاش منشي وصمغ وشمع ولبادة، وحوض متوسط الحجم لتخفيف الحمض، وخشب أبلاكاش فنلندي ولينو. ثم تجولت في حواري وأزقة خان الخليلي. ووقفت كثيراً أمام رنك لأحد المماليك في حارة الصالحية. "عزة نصرة".. جثث كثيرة كلها بلا رؤوس.. لم أعرف الأمير مقدم ألف من المماليك.. كلهم افترسهم الموت. الكلاب تنهش في جثثهم وتلغ في بطونهم.. والنهابة يجردونك من الزرد والجشنك وخوذتك وسيفك. ما تزال قبضة يدك تشد على سيفك الأحدب، يقطعون كف يدك ومعها المهارة... آخر سيف يحاول التصدي لآلة السلاح الجديدة. يأتون مثل الجراد المنتشر. طلقات كثيرة من الآلة الحمقاء تزلزل الأرض تصيب الجواد الأصيل. يترجل. يلقي النظرة الأخيرة عليه. يسل سيفه ويلقي الغمد بعيداً، وفي اليد الأخرى الطبر الجناح. دليل نهب الأرواح، أصبحت الحلقة كاملة من حوله. تضيق عليه. كلت يداه وثلم السيف، وكُسِر الطبر بين يديه. أول شيء سأحفره هو رنك المملوك.

. نظرت خلفي. أيتبعني خيالي أم يحاول الهرب مني؟ أتجول بين جوامع وأسبلة، تقف كل واحدة منها أمام الأخرى في عناد وتحد. نفس الارتفاع والحجم والحجارة التي حفر عليها اسم مملوك، وشنق أسفلها مملوك آخر. ذهبت إليهما وأنا أحمل دروعي الجديدة ومن خلفي يتبعني خيالي في بطء. قرأت الفاتحة ثلاث مرات وقد كان المطلب الأخير من المملوك. صعدت أعلى الباب، شاهدت الموكب الأخير. يمتطي أكديشاً مذعورة من السيوف الكثيرة التي تحيط به من كل جانب. يضع يده اليمنى فوق اليسرى مثل الأعيان والأكابر عند ربطهما معاً. ينظر إلى السماء ثم إلى الباب. تقع عيناه علي. أحاول الاختباء، ولكن لا مكان أذهب إليه. أحاول مساعدته لكن لا سيف لدي. يشعر بي.. يبتسم لي.. يزداد حزني عليه. أين المقدمين؟ أين الفرسان؟ أين الخاصكية؟ لا يجد أحداً ليدافع عنه. يرخون الحبال فيترجل أخيراً. يتوقف الزمن وتتوقف القلوب عن الخفقان. القلب الوحيد الذي ينبض هو قلب المملوك. سبع درجات هي الفاصل بين الحياة والموت. يطأ بقدمه اليمنى أول درجة للموت، أرى نعليه من الجلد الأحمر لون الدم. يرتدي ملوطة بيضاء بأكمام كبار.. اقتربت من حافة الباب الملعون لأشاهد المملوك الأخير. أجده في انتظاري يقف على الدرجة الأخيرة يتقدم منه المشاعلي المملوك ينتظر أن أضع الخية في رقبته. يرتفع الحبل ومعه المهارة والفن. لا يُظهر أي مقاومة. العيون ماتزال مفتوحة رغم الموت، وأنا أغلقت عيني لأفتحها بقوة وأمنعها من البكاء للأبد. بقيت فوق الباب ثلاثة أيام.

ـ أقوم بقطع الحبل.. أحمل المملوك.

لا أشم رائحة عفونة للجثة..

أحتفظ بها لنفسي..

للفن.. للمهارة.

حباً وكرامة

---

1 الراية الكبيرة في مصطلح المماليك

2 الطبر هو نوع من البلطة

3 الطباق هو سكن المماليك